محاضرات في علم الأخلاق

إعداد
دكتور / نظير محمد عياد
مدرس العقيدة والفلسفة
بكلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م
الدار الإسلامية للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونشكره ولا نكفره ، ونعادي من يكفره ، .ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا إنه من يهديه الله فلا مضل له ، وأشهد أن لا أله إلا الله خصنا بخير كتاب أنزل ، وشرفنا بخير نبي أرسل ، وجعلنا بالإسلام خير أمة أخرجت للناس نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونؤمن بالله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . اللهم أحينا على سنته وأمتنا على ملته واحشرنا في زمرته ، وألحقنا بصحبته اللهم أمين .

أما بعد ...

فإن دراسة علم الأخلاق بما تشتمل عليه من تحسين للفضيلة وحض عليها وتقبيح للرذيلة ونهي عنها من الأمور الضرورية لطالب العلم حتى يجمع بين الحسنيين علم واسع ، وخلق فاضل ، لما هو معلوم من أن أكرم الفضائل ، وأحسن الشمائل خلق يتحلى به الإنسان ليعلو به عن مراتب الحيوانية ، فالإنسان والحيوان كلاهما يتكون من لحم ودم وعصب ، إلا أن الإنسان يتميز بالفهم والخلق فإذا ما انعدما ، انعدمت الفروق المميزة بينهم ؛ لذا كانت الأخلاق هي روح الحياة الإنسانية ، وضوء عينها وقبس النور في هذا الوجود المظلم .

فالأخلاق من الموضوعات التي تحتل مكاناً كبيراً من اهتمام الإنسان وتستحوذ على تفكيره ، أو ينبغي أن تكون كذلك ، فالإنسان لا يستطيع أن يستغني عن الأخلاق في أي لحظة من لحظات حياته .

وفي الكتاب الذي بين أيدينا سنقوم بعرض سريع لبعض مبادئ وموضوعات و مباحث علم الأخلاق . وقد اشتمل الكتاب على مقدمة وتمهيد وعدة فصول جاءت على النحو التالي :

الفصل الأول : مقدمات عامة .

الفصل الثاني : صلته بغيره وقد اشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : صلته بالدين .

المبحث الثاني : صلته بالعلوم الأخرى .

الفصل الثالث : الخلق والضمير والعوامل المؤثرة فيهما وقد اشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : الخلق .

المبحث الثاني : الضمير .

الفصل الرابع : من تاريخ البحث الخلقي وقد اشتمل على عدة مباحث :

المبحث الأول : الأخلاق عند الشرقيين القدماء .

المبحث الثاني : الأخلاق عند اليونان .

المبحث الثالث : الأخلاق في العصور الوسطى ويتضمن :

أولاً : الأخلاق المسيحية .

ثانياً : الأخلاق الإسلامية .

المبحث الرابع : الأخلاق في العصر الحديث .

الفصل الخامس : من النظريات الأخلاقية .

الفصل السادس : دراسة لبعض الفضائل والقيم الأخلاقية وأثرها على الفرد والمجتمع .

ثم فهرس الموضوعات .

فالدراسة التي بين أيدينا هي عبارة عن دراسة للسلوك الإنساني وما ينبغي أن يتحقق في دنيا الواقع .

وفي عرضنا هذا كله توخينا سهولة العبارة ووضوح الكلمة . ونحن نأمل أن يكون هذا الكتاب طريقاً يهتدي به القارئ الكريم للوصول إلى ميدان الأخلاق الحميدة ، ويجعل عنده الرغبة في التخلق بخلق حسن .

والله نسأل أن ينفع به طلاب لعلم ورواد المعرفة ويمنحني التوفيق والسداد إنه ولي ذلك والقادر عليه . وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تمہید

الإنسان كائن أخلاقي

يُوصف الإنسان بصفات كثيرة متنوعة ، تبعاً للزاوية التي ننظر منها إليه ، وعلى حَسَب العلم الذي يتناوله بالدراسة ، فهو يُوصَف – في مجال المعرفة – بأنه حيوان ناطق ، أي إنه كائن عاقل مفكِّر ، ويوصف في علم الاجتماع بأنه كائن ذو تاريخ بمعنى أنه قادر على ملاحظة تاريخه وتسجيله ، وتعريف الأجيال الجديدة به ، وهكذا تتعدد الصفات والتعريفات بتعدد الزوايا والمجالات .

ويمكن لنا – في مجال علم الأخلاق – أن نَصِف الإنسان بأن كائن ذو إرادة . ومعنى ذلك أنه مزوَّد بالقدرة على الاختيار والمفاضلة بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والفضيلة والرذيلة ، ثم إنه مُهيّأ – بعد ذلك لتنفيذ ما يختاره ، بإرادة حرة من غير قَصْرٍ ولا اضطراب .

ومعنى ذلك أنه لا يخضع – في اختياره وسلوكه – لغريزة قاهرة ، أو طبيعة ثابتة ، تُلزمه بسلوك معين لا يحيد عنه ، بدليل أنه يستطيع أن يغيِّر من هذا السلوك ، إذا بدا له الأسباب ما يدعوه إلى ذلك ، فينتقل من خير إلى شر ، أو من شر إلى خير ، ويختلف سلوكه بين فعل وتَرك ، ومنع وعطاء ، وإقبال وإدبار ، وإقدام وإحجام . ويوصَف فعله في كل حالة بما يناسبها ، مادام اختياره متحققاً ، ومادامت حريته مكفولة ، وعلى حسب اختياره تتحدد مسئوليته ، ويقع الجزاء [1].

---

(١) انظر : دراسات أخلاقية . د . عبد الحميد مدكور صـ ١٤ ، ١٥ . دار الثقافة العربية ط ١٩٩٢م .

قال تعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝ ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ۝ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ ﴾ (٢).

ومادام الإنسان على هذه الصفة : صفة الإرادة والاختيار فإنه يوصف بأنه كائن أخلاقي .

فالإنسان يتميز دون غيره من سائر الكائنات الأخرى بصفة الإرادة في أفعاله . وهذه الأفعال قد تكون خيراً وقد تكون شراً ، فقد تكون هذه الأفعال خيراً محضاً ، لا شر فيه ولا نقص ، وذلك كأفعال الملائكة الذين يوصفون في القرآن الكريم بأوصاف منها قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۝ ﴾ (٣).

---

(١) سورة الشمس الآيات (٨ : ١٠) .

(٢) سورة الإنسان الآيات (٣ : ٥) .

(٣) سورة الأنبياء الآيات (٢٦ : ٢٨) .

وقال تعالى : ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾ [1].

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [2]. إلى آيات كثيرة أخرى .

وقد تكون هذه الأفعال شراً خالصاً لا خير فيه ، كما جاء في وصف الشيطان ، فهو يزين للناس الشر ، والكفر والمعصية ، وهو ينهاهم عن الخير ويأمـــرهم بالفحشاء ، ويصرفهم عن البر والطاعة والإحسان وتدلنا الآيات القرآنـــية عـــلى إصراره على الشر والإغراء والتضليل ، ومن هذه الآيات قوله تعالى :

﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ [3].

---

(١) سورة فصلت الآية (٣٨) .

(٢) سورة التحريم الآية (٦) .

(٣) سورة النساء الآيات (١١٨ : ١٢٠) .

وقال تعالى :

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ۝١٧ ﴾ [1].

وقال تعالى :

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۝٦٣ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝٦٤ ﴾ [2].

وقد تكون هذه الأفعال ناشئة عن غريزة كأفعال الحيوان ، التي لا تصدر عن فكر ولا إرادة ؛ لأن الحيوان ليس مزوداً بهما ، وإنما تصدر عن غريزة ينعدم فيها الاختيار أو يقل إلى درجة تجعله أشبه بالعدم ، ولذلك لا تخضع أفعاله لموازين الأخلاق ، ولا توصف بوصف من أوصافها . وكذلك تنتفي عنه المسئولية الجزئية ، لانتفاء شرطها في حقه [3].

---

(١) سورة الأعراف الآيات (١٦ : ١٧) .

(٢) سورة الإسراء الآيات (٦٢ : ٦٤) .

(٣) انظر : دراسات أخلاقية . د . عبد الحميد مدكور صـ ١٧ .

وإذا كان الإنسان يتميز بهذا الجانب الإرادي المحتمل للخير والشر عما سواه من الكائنات ، فإنه لا بد من التنبيه على أن الذي يدخل في نطاق الحكم الأخلاقي الجانب الإرادي من أفعاله ، أما ما تنعدم فيه الإرادة فإنه يخرج عن دائرة المسئولية الأخلاقية .

فمن المعلوم أن هناك أعمالاً غير إرادية لا دخل للمرء فيها ، وذلك كرعشة اليد ، ونبضة القلب ، وحركة الأمعاء والكبد وغير ذلك من الأمور التي تحدث ولا دخل للإنسان فيها ، وذلك مثل ما يحدث من الطفل الذي لم تتضح قواه العقلية . ومن المجنون الذي يفقد توازنه العقلي لأمر لا دخل فيه ، ويدخل في ذلك السكران الذي لم يتعمد السُكر ، وينطبق الأمر على المُكرَه إكراهاً تاماً بحيث لا يكون له إرادة ولا اختيار ، فأفعال هؤلاء خارجة عن نطاق المسئولية الأخلاقية بسبب غيبة شروط اكتمال الإرادة لديهم . فإذا تحقق لهؤلاء قدر أونصيب من الإرادة فإنه يلزمهم من المسئولية بمقدار هذا النصيب ، فالذي يَسْكر عامداً يُعد مسئولاً عن أفعاله ، لأنه هو الذي تسبب في غيبة عقله بإرادته ، والذي يمشي وهو نائم عليه أن يتخذ من وسائل الاحتياط ما يمنعه من الأضرار بنفسه أو بالآخرين ، فإذا قصّر في هذا الأمر فإنه يكون متحملاً لجزء من المسئولية ، وإن تكن مخففة [1].

والمكرَه الذي لا يكون إكراهه إكراهاً تاماً مطلقاً – بأن يكون له شيء من الاختيار في فعل بعض الأشياء دون بعض – لا يكون كالمكرَه الذي تنعدم لديه كل مظاهر الإرادة والاختيار ، وللفقهاء المسلمين وفلاسفة القانون دراسات جديرة بالاعتبار في هذا الشأن ، وهكذا [2].

---

(١) انظر : مباحث ونظريات في علم الأخلاق . الشيخ . أبو بكر زكرى ، والشيخ عبد العزيز أحمد صـ ٣٥: ٣٩ . دار الفكر العربي ط ٤ / ١٩٦٥م ، وأنظر دراسات أخلاقية صـ ١٦ ، ١٧ .

(٢) انظر : دراسات أخلاقية صـ ١٧ .

وقد تعرض هذا الإنسان الذي وهبه الله تعالى هذه الإرادة القابلة للخير والشر للامتحان والابتلاء منذ بداية خلقه ، ويعني ذلك أنه قد تعرض لتجربة أخلاقية امتُحنَت فيها إرادته وعزيمته ، وذلك عندما أسكنه الله تعالى الجنة ، وأخذ عليه العهد والميثاق بالطاعة والإنابة والمخالفة لإبليس الذي أبى أن يسجد لآدم عندما أمره الله بذلك ، وقد ضمن الله تعالى له ألا يصيبه عندئذ خوف ولا عُرى ولا ظمأ ولا حر ، ولكن الشيطان وسوس له [1].

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [2].

ولم تكن معصية آدم عن قصد وتصميم ، أو ناشئة عن نية مبيته لهذا وصف الله ما حدث له بأنه كان عن نسيان لذا مَنَّ الله عليه بالتوبة ، على خلاف إبليس الذي قصد المعصية وعمد إليها ، وطلب من الله المهلة إلى يوم القيامة لإضلال الناس .

---

(١) انظر : دراسات أخلاقية . د . عبد الحميد مدكور صـ ١٨ .

(٢) سورة طه الآيات (١١٥ :١٢١) .

قال تعالى :

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ (1).

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (2).

وفي حقد إبليس قال تعالى :

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾ (3). **وقال تعالى :** ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ

---

(1) سورة البقرة الآية (٣٧) .

(2) سورة طه الآية (١٢٢) .

(3) سورة النساء الآيات (١١٧ : ١٢١) .

مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (١).

وعلى هذا يكون الإنسان معرضاً للابتلاء امتحاناً لإرادته وهذا الابتلاء هو أساس المسئولية الأخلاقية ، ومناط الحكم الأخلاقي .

ولم يكن التعرّض للاختبار الأخلاقي مقصوراً على آدم وحواء وحدهما بل إنه كان اختباراً دائماً للذُّرية من بعدهما .

قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ (٢).

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ (٣).

---

(١) سورة ص الآيات (٧٥ : ٨٥) .

(٢) سورة الملك الآية (٢) .

(٣) سورة الإنسان الآيتان (٢ ، ٣) .

وقال تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (١).

وقد كان أقدم الذين تعرضوا للابتلاء بعد آدم عليه السلام اثنين من ذريته ، وهما (قابيل وهابيل) اللذان حكى الله تعالى قصتهما في القرآن الكريم في سورة المائدة . قال تعالى :

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٣٥) .

أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [1].

وتتحدث هذه الآيات عن شخصيتين مختلفتين في خصائصهما وصفاتهما الأخلاقية : فأحدهما : طائع لله ، مقبل عليه ، حريص على مرضاته ، ولذلك يتقبل الله عبادته ، أما ثانيهما : فهو على الضد من ذلك ، ولذلك لا يتقبل الله منه ، لأنه ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وعند ذلك يتجه بمشاعر البغضاء والحقد إلى أخيه ، الذي لا دخل له في عدم قبول الله لطاعته ، ويصل الحقد إلى منتهاه وذروته حين يُجَاهِر أخاه بأنه سيقتله ، ويرفض الأخ الصالح أن يجاريه في مشاعره العدوانية الآثمة ، بل إنه يعلن أنه لن ينجرف إلى هاوية القتل التي يريد أخوه [illegible] سقط بها ، ويحذّر أخاه من عذاب النار وغضب الله ، ولكن مشاعر [illegible] قد استولت على قلبه ، وعزيمته على القتل كانت قد استحكمت ، وإرادته على ارتكاب الجريمة قد اجتمعت ؛ ولذلك مضى قُدُماً إلى ارتكاب جريمته لا يصدره عنها ضراعة ولا تحذير ، ووقعت بذلك أول جريمة قتل في تاريخ البشرية ، وبسبب هذا العزم والتصميم والقصد الجازم لم يكن أهلاً لتوبة الله عليه ، كما سَنَّ الله تعالى بالتوبة على أبيه من قبل ، بل إن ذلك كان سبباً في أن يلحقه عقاب يتجدد مع كل جريمة قتل تقع بين بني آدم [2] وفي ذلك يقول الرسول

---

(١) سورة المائدة الآيات (٢٧ : ٣٢) .

(٢) انظر : دراسات أخلاقية د . عبد الحميد مدكور صـ ٢٠ ، ٢١ .

(ﷺ) : « لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْماً إلاّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ »[1].

وقال (ﷺ) : « مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ »[2].

وعلى الرغم من وقوع المعصية من آدم وأبنائه ، فإنه يمكن القول : بأن الطبيعة الإنسانية المؤهلة لفعل الخير والشر – هي أقرب إلى الخير منها إلى الشر ، وتوصف هذه النظرية إلى الإنسان بأنها نظرة تفاؤلية ، وهي نظرة تتفق مع بعض الآيات القرآنية التي تصف الإنسان بأنه مخلوق في أحسن تقويم : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[3].

كما توجد بعض الأحاديث التي تذكر أن الإنسان يولد على الفطرة ، وهي فطرة تتصف بالكمال والبراءة من الآفات والعيوب ولذلك تتجه إلى خالقها بالعبادة ، محققة أسمى درجات الكمال الديني الأخلاقي ، والتي يطالب الله بها عباده .

قال رَسُولَ اللَّه (ﷺ) فيما يرويه عن رب العزة « ... وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَاناً ...»[4].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب القسامة باب بيان إثم من سن القتل حديث رقم ٤٤٧٣ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب العلم باب من سن في الإسلام سنة حسنة أو سيئة حديث رقم ٤٤٧٣.

(٣) سورة التين الآية (٤) .

(٤) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجنة ونعيمها باب الصفات التي يعرف بها أهل الجنة وأهل النار م ٩ جـ ١٧ صـ ١٩١ حديث رقم (٢٨٦٥).

فالرسول (ﷺ) يخبر أن كل نفس مفطورة على الإقرار لله بألوهيته ومحبته وعبادته ، وأن هذه الفطرة عامة في كل من يخضع لله بالعبودية والعبودية هنا صفة كونية تشمل الجميع .

قال تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [1].

والفطرة إذا فسدت أو تحولت عن الحق أو ضلت سبيلها نحو معرفة الخير فإن ذلك يكون لعارض طارئ عليها من خارج ذاتها كما أخبر سبحانه وتعالى " وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ " وهذا يتمثل في عامل الشهوة والغفلة أو الجهل والهوى ، فالغفلة والشهوة أصل من أصول الشر في الإنسان . والهوى لا يستقل وحده كدافع على ارتكاب الشر بل لا بد معه من عامل آخر كالجهل . وإلا فصاحب الهوى إذا علم قطعاً أن ذلك يضره ضرراً راجحاً انصرفت عنه نفسه بالطبع استجابة للفطرة لأن الله فطره على حسب النافع ، فلا يفعل الإنسان ما يجزم بأنه ضرر راجح . وإذا فعله كان ذلك لفساد فطرته وجهله [2].

ولهذا فإن البلاء العظيم يكون من الشياطين وليس من مجرد النفس ؛ فإنه يزين لها فعل السيئة وارتكاب الشر ويحدثها بما في ذلك من المحاسن التي يزينها للإنسان ، كما فعل إبليس بآدم وحواء .

---

(١) سورة مريم الآية (٩٣) .

(٢) انظر : في الفلسفة الخلقية لدى مفكري الإسلام . د . محمد الجليند صـ ٦ ، ٥ . نشر مكتبة نهضة الشرق . جامعة القاهرة .

قال تعالى :

﴿ ... قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ... ﴾ [1].

قال تعالى :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [2].

ولهذا قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [3].

وقصارى القول في هذا :

" أن الله تعالى قد منح الإنسان هذه الفطرة ليتمكن بها من تحقيق مصالحه وما فيها نفعه ودفع ما يضره وأعانه على ذلك بأسباب ظاهرة وباطنة ومهد له الطريق ثم أرسل رسله وأنزل كتبه لبيان ما غمض وتفصيل ما أجمل في الفطرة ، وأزال عنه كل علة يحتج بها على الله . لأن

(١) سورة طه الآيتان (١٢٠ ، ١٢١) .

(٢) سورة الأعراف الآية (٢٠) .

(٣) سورة الزخرف الآية (٣٦ ، ٣٧) .

كثيراً مما ينفع الإنسان أو يضره لا علم لـه بتفصيله إلا عن طريق الوحي ، والرسـل فهناك إذن عاملان يكمل أحدهما الآخر . عامل الفطرة ، وعامل الشـريعة ، والعـامل الأول (الفطرة) هو الذي يجعل القلب متفتحاً لتقبل العامل الثاني . لأن ذلك مقتضاها " [1].

حيـث إن الـنفس في أصـل خلقتها تبدو كالصفحة البيضاء التي لاغـبار فـيها أو بمعـنى أخر تبدو وكأنها بذرة صالحة أودع الله فيها كل مقومات الإنبات فهي مهيأة – في أصل وجودها – لذلك ، ولكن هذا النماء والإثمار مشروط بتحقيق الظروف والشروط الملائمة له ، فإذا يسرت خرج إلى الوجـود ما كان كامنا في باطنها أما إذا تخلفت هذه الظروف فإنها تذبل وتضعف أو تموت .

والنفس – على هذا – مهيأة للخير ، صالحة لفعله ، مزودة بالإرادة لتحقيقه ، لكن ما قد يعترضها من ظروف في البيئة أو في المجتمع قد ينحرف بهـا عن الصلاح ، وعندئذ لا تحس سكينة ولا أمناً ، لأن انحرافها عن الخير والإيمان مخالف لطبيعتها ، ومضاد لفطرتها .

وممن يرى هذا الرأي من الفلاسفة المتفائلين فولتير (١٧٧٨) الذي يقول : إني لَمعتقد أن فكرة العدالة كانت في الإنسانية – منذ البدء – جَلِيَّةً واضـحة وضـرورية ، بأكـثر من وضوح فكرة الصحة والمرض ، والحق والباطل ، والموافق واللا موافق [2].

كل هذا يؤكد أن الإنسان ذو كيان أخلاقي .

---

(١) في الفلسفة الخلقية لدى مفكري الإسلام د . محمد الجليند صـ ٥ .

(٢) انظر : دراسات أخلاقية . د . عبد الحميد مدكور صـ ٢٢ .

الفصل الأول

مقدمات عامة

تعريف علم الأخلاق

التعريف اللغوي :

إن أول ما ينبغي البدء في دراسة علم من العلوم هو التعريف به وبموضوعه ، ولما كانت التعريفات غالباً تخضع لمفهومين : أحدهما : لغوي ، والأخر : اصطلاحي والمراد بالأول : بيان المعنى المراد من ظاهر اللفظ عند علماء اللغة فقط . والثاني : يقصد به بيان ما تواضع عليه أرباب العلم موضوع التعريف ، وتحديد معناه تحديداً دقيقًا بحيث يميزه عن غيره من العلوم والفنون الأخرى .

وقد جاءت كلمة أخلاق في اللغة العربية بعدة معان منها :

يقول صاحب القاموس المحيط : " الخلق بالضم وبضمتين السجية والطبع والمروءة والدين " [(١)] .

وفى لسان العرب لابن منظور : " الخُلُق " : الطبيعة وجمعها أخلاق . والخُلْق الخُلُق السجية . وقال : الخُلُق : هو الدين والطبع والسجية ، وحقيقته أنه وصف لصورة الإنسان الباطنة ، وهى نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها ، بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقبيحة [(٢)] كما أن من معانيه الشيمة والعادة [(٣)] .

---

(١) انظر : القاموس المحيط للفيروزابادي صـ ١١٣٧ باب القاف فصل الخاء مؤسسة الرسالة . بيروت ط ٢ ١٤٠٧هـ . ١٩٨٧ م .

(٢) انظر : لسان العرب لابن منظور ج٢ ص ١٢٤٥ مادة خلق طبعة دار المعارف القاهرة .

(٣) انظر : نفس المصدر ص ١٢٤٥ .

ومن هذا العرض اللغوي "للأخلاق" يمكننا تلخيص أربعة معان بارزة :

الأول : الخُلُق يدل على الصفات الطبيعية في خلقة الإنسان الفطرية على هيئة مستقيمة متناسقة .

الثاني : تدل الأخلاق أيضاً على الصفات التي اكتسبت وأصبحت كأنها خلقت مع طبيعته .

الثالث : أن للأخلاق جانبين : جانباً نفسياً باطنياً ، وجانبًا سلوكيًا ظاهريًا .

الرابع : أن كلمة خلق تطلق على الخلق الحسن ، والخلق القبيح .

التعريف الاصطلاحي :

فقد عُرِّفت " الأخلاق " بتعريفات متعددة أُختلِفت فيها وجهات نظر الباحثين . نذكر منها ما يلي :

١ – ابن مسكويه :

عرفها ابن مسكويه بقوله : " الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية ، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين : منها : ما يكون طبعاً من أصل المزاج . ومنها : ما يكون مستفاداً بالعادة والتدرب ، وربما كان مبدؤه بالرّوية والفكر . ثم يستمر عليه أولاً فأولاً حتى يصير ملكة وخلقاً " [1] .

(١) انظر : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق . لابن مسكويه صـ ٤١ . حققه وشرح غريبه ابن الخطيب . المطبعة المصرية ومكتبتها ط ١ .

والمتأمل في هذا التعريف يجد أنه يجعل الخلق حالة للنفس يصدر عنها الفعل في يسر وسهولة ، سواء أكان مصدر هذا الخلق هو الطبع أم التكرار إلى أن يصبح الخلق عادة تعتادها النفس .

٢ — الإمام أبو حامد الغزالي :

عرفها الإمام أبو حامد الغزالي بقوله : " الخلق عبارة عن : هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خُلقًا حسناً ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خُلقًا سيئًا " .

وإنما قلنا إنها هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خُلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ ، وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية ، لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لايقال خلقه السخاء والحلم .

وفي هذا التعريف أربعة أمور : أحدها : فعل الجميل والقبيح . والثاني : القدرة عليهما . والثالث : المعرفة بها . والرابع : هيئة النفس بها تميل إلى أحد الجانبين ، ويتيسر عليها أحد الأمرين : إما الحسن وإما القبيح " [1] .

---

(١) إحياء علوم الدين . للغزالي جـ ٣ صـ ٥٨ . دار الريان للتراث ط ١ . ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.

ونفهم من التعريفين السابقين أمورًا منها :

أ – " الخلق " : حال النفس – كما قال ابن مسكويه – أو هيئة للنفس – كما قال الغزالي – أي أنه صفة للجانب النفسي من الإنسان . كما أن الخَلق – بفتح الخلق – صفة للجانب الجسدي منه .

وهذه الصفة النفسية لابد أن تكون راسخة . أي ثابتة غير عارضة ، فهل تمثل عادة لصاحبها تتكرر كلما حانت فرصتها ، فالبخيل الذي يتصدق مرة في حياته لا يعتبر كريمًا .

ب – هذه الصفة النفسية الراسخة الثابتة تصدر الأفعال عنها بسهولة ويسر . أي من غير تكلف ، فالشخص الفاجر الذي يتكلف الحياء والعفة ليس حييًا ولا عفيفًا . وصدور الأفعال عن هذه الهيئة أو الملكة النفسية يكون من غير فكر ولا روية . أي من غير تردد ، ومن غير تأخير عن الوقت المناسب لأن الخلق صار عادة له يفعله تلقائيًا بدون جهد ذهني وإن كان يعمل عقله في تخير جهته ، فالكريم لا يتردد عند العطاء والبذل ، ولكنه يتخير جهة الخير ، أو نوعه ، أو الشخص الذي يمنحه ، أو الجهة التي تستحق العطاء ، فالفكر بذل في توجيه الخير وجهة معينة دون أخرى [1] .

جـ – " الخلق " منه ما هو طبيعي أي فطري يولد الإنسان مزودًا به : كالحلم والحياء ، كما ورد في الحديث (... أن فيك خلقين يحبهما الله

---

(١) انظر : بغية المشتاق إلى دراسة علم الأخلاق . د . ثروت حسين مهنا صـ ١٤ ، ١٥ – الدار الإسلامية للطباعة والنشر ط ١ – ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م .

الحلم والأناة " قال : يا رسول الله : أنا أتخلق بهما ، أم الله جبلني عليهما ؟ قال : " بل الله جبلك عليهما " قال الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله) [١].

٣ – الشريف الجرجاني :

فقد عرف الخلق بقوله : " هو عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعًا بسهولة ، سميت الهيئة خلقًا حسنًا ، وإن كانت الهيئة التي تصدر عنها الأفعال القبيحة ، سميت الهيئة خلقًا سيئًا " [٢] .

والناظر في هذا التعريف يستطيع أن يدرك دون كبير عناء أنه هو نفس تعريف الإمام الغزالي .

٤ – كما عرف علم الأخلاق :

بأنه : " بحث في قواعد السلوك ، أو محاولة يراد بها وضع مبادئ نظرية عامة تستخدم أساسًا لكل القواعد العملية التي يتطلبها سلوكنا الشخصي وتقتضيها سيرتنا العملية ، وتصرفاتنا . إننا نسير بمقتضى القواعد العامة التي يضعها فلاسفة الأخلاق " [٣] .

---

(١) رواه مسلم . كتاب الإيمان . باب الإيمان بالله ورسوله جـ ١ صـ ٤٨ الحديث رقم ١٧ .
(٢) التعريفات للجرجاني . صـ ٣٦ . تحقيق / إبراهيم الابياري ط دار الريان للتراث .
(٣) أسس الفلسفة . د . توفيق الطويل صـ ٤٣٧ . دار النهضة العربية ط ٧ صـ ١٩٧٩م .

٥ – وقيل :

هو : " علم يوضح معنى الخير والشر ، ويبين ما ينبغي أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضًا ، ويشرح الغاية التي ينبغي أن يقصدها الناس في أعمالهم ، ويتبين السبيل لعمل ما ينبغي " [1] .

هـذه بعض التعاريف التي ذكرها العلماء لعلم الأخلاق نستطيع أن نقف من خلالها على عدة نقاط من أهمها :–

١– أن هـذه التعاريف جاءت متنوعة نبعًا لاختلاف وجهات نظر العلماء حول ميدان هذا العلم .

٢– أن هـذه التعاريف أظهرت أن هذا العلم لا يقتصر على البحث عما هو كائن بل يبحث عما ينبغي أن يكون .

٣– أن هـذه التعاريف أوضحت أن الأخلاق هي الحالة الداخلة التي يوصف بها الإنسان .

موضوع علم الأخلاق :

إن لكل علم من العلوم موضوعاً يتميز به عما عداه من العلوم الأخرى بمعنى : أن موضوع كل علم يدور في قضاياه ومسائله التي يتكون من البحث فيها هيكله وبناؤه الخاص به . وبتحديد الموضوع وتميزه تميزًا جليًا واضحًا يستطيع الباحث التفريق بين علم وآخر .

---

(١) الأخلاق . أحمد أمين صـ ٢ .

ولــو نظرنا إلى علم الأخلاق لوجدنا أن مهمته الأولى هي البحث في الأعمــال الصــادرة عــن الناس من ناحية الخير والشر ولما كانت الأعمال الصادرة عن الناس في الغالب لا تخرج عن :

١- الأعمال الإرادية .

٢- الأعمال غير الإرادية .

٣- أعمال أخذه بشبهة بين الإرادية وعدمها .

انحصــر موضــوع الأخلاق في هذه الأعمال ، وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل : -

أولاً : الأعمال الإدارية :

هي الأعمال التي تصدر عن الإنسان بعد تفكير وتدبر لنتائجها المرتقبة وتكويــن إدارة لعمــلها ، فإذا أراد الإنسان أن يتزوج فكر طويلاً في هذا الأمــر ، وأخــذ يستعرض الأوصاف التي يتطلبها في شريكة حياته ، وأخذ يســتعرض حالته المادية ويفكر في كل هذه النواحي ليتخذ قراره النهائي في الأمــر ، أيقــدم عــلى الزواج ، أم لا ، فإذا قرر الزواج فإنها تتكون لديه الإرادة والرغــبة الــتي تمكنه من إخراج هذا الأمر إلى حيز الفكر إلى حيز العمل الفعلي .

ثانيًا : الأعمال غير الإرادية :

وهــي الأعمــال التي لا يفكر فيها الإنسان وليس لــه أية إرادة في حدوثها ولا يتدبر نتائجها ولا يمكن أن يتحكم في هذه النتائج .

فعملية الهضم مثلاً أو عملية التنفس أو نبض القلب ، هذه جميعًا أعمال آلية دون أن يكون لتفكير الإنسان وإرادته أي تدخل فيها ، وقد تتم هذه الأعمال على أكمل وجه ، ويستفيد الإنسان بنتائج كما لها فوائد جمة .

وقد تتم وفيها قصور فتعود على الإنسان بنتائج وخيمة ، وفي كلتا الحالتين لا يكون للإنسان أي تدخل في حدوثها أو في التحكم في نتائجها [1] .

ثالثاً : أعمال آخذة بشبه بين الإعمال الإرادية وغير الإرادية :

وهي الإعمال التي إذا نظرنا إليها من زاوية حسبناها أعمالاً إرادية ، وإذا نظرنا لها من زاوية أخرى ألفيناها غير إرادية .

١ – فمن الناس مثلاً من يأتي أعمالاً وهو نائم فيقوم من فراشه من غير أن يشعر بأنه يسقى زراعة له ، أو يذهب لزيارة قبر عزيز لديه ، أو يقتل شخصًا في طريقه ، ثم يعود إلى فراشه مرة أخرى ويستغرق في نومه دون أن يدرك أو يدري ما حدث .

٢ – ومن الناس من يصاب بنوبات عصبية تجعله يرتكب حماقات كثيرة في حالة هياجه الغضبي فيضرب الآخرين أو يقتلهم وهو غير مدرك لما يفعل [2] .

---

(١) انظر : الأخلاق . أ . أحمد أمين صـ ٢ ، ٣ ، في الأخلاق الإسلامية والإنسانية .د . علي معبد صـ ٨ ، ٩ دار الطباعة المحمدية طـ ٢ ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م .

(٢) نفس المصدر السابق صـ٣ ، وانظر في الأخلاق الإسلامية صـ ٩ .

هــذه الأعمال جميعًا وأمثالها إذا نظرت إليها من زاوية أنها أعمال تمت وأحدثــت آثاراً ، إما خيرة أو شريرة لأمكنك أن تصفها بأنها أعمال إرادية ولكنك إذا نظرت إليها من زاوية أنها أعمال تمت دون أن يكون للفكر فيها أو الإرادة نصــيب لتحتم عليك أن نعدها أعمالاً غير إرادية والآن وقد بينا الأنواع المختلفة للأعمال ، فلنجب عن تساؤلنا :

أي هذه الأعمال يخضع للحكم الخلقي وأيها لا يخضع ؟

الأعمال الإرادية تخضع للحكم الخلقي فيحكم عليها بأنها خير أو شر وأن صاحبها خير أو شرير ، ويحاسب على ما أتاه منها لأنه فكر وتدبر فيها واتخذ قراره لإتيان هذا العمل ، فهو إذاً مسئول عن كل النتائج التي تحدث نتــيجة لهــذا العمــل فإن كانت خيرة امتدحناه ونعتناه بالخير ، وإن كانت شريرة لمناه واحتقرناه وعاقبناه بكرهنا لــه وابتعادنا عنه .

أما الأعمال غير الإرادية فإنها لا تخضع بأي حال للحكم الخلقي فهي ليســت مــن موضــوع عــلم الأخــلاق فــلا يحكم عليها بخير ولا بشر ولا نحكــم على فاعلها بأنه خير أو شرير ، ولا يحاسب الإنسان عليها لأنه لايفكــر فيها وليست له إرادة في عملها ومن ثم فهو لا يحاسب عليها فهل يمكــن أن يحاسب الإنسان على نبضات قلبه منتظمة أم مختلفة ، أو يحاسب عــلى رمش عينه سريع هو أو بطيء إن هذه الأعمال غير الإرادية تتحكم فيها الطبيعة بالقدرة الربانية وحدها ولا تقع تحت طائلة الحكم الخلقي .

الأعمـال التي وصفناها بأنها آخذة بشبهة بين الأعمال الإرادية وغير الإراديـة فإن هذه الأعمال كلها بالتأمل والتفكر فيها نرى أنها أعمال غير إراديـة فليس النائم الذي يأتي بأعمال وهو نائم يتعمد فعل هذه الأعمال ، أو كانـت لـه إرادة فيما أحدثه من نتائج ، ولهذا فهو ليس مسئولاً وقت أن أتى بهذا العمل ؛ لأنه لا إرادة لـه ، وإنما يسال ويحاسب إذا كان يعلم أنـه مصاب بهذا المرض وأنه قد يأتي أعمالاً خطرة وهو نائم ثم لم يحتط أثناء صـحوه وانتباه لما قد يحصل منه عند نومه فيحول بين نفسه وبين إتيان هذه الأعمـال بأن يغلق باب غرفة نومه فلا يتمكن من الخروج منها أو ينام ، مع مـن يسـتطيع أن يحول بينه وبين مغادرة حجرة نومه أثناء الليل ، وهكذا فـنحن مسئولون خلقيًا عن عدم الاحتياط في الأوقات التي نكون فيها غير مسئولين وكذلك في المثال الثاني لو أن المصاب بمرض عصبي حرص على أن يصـحب معـه دائمًـا من يحول بينه وبين إتيان أعمال طائشة وقت هياجه العصبي ، لما حدثت هذه الأعمال جميعًا ولما تحققت نتائجه الوخيمة [1] .

وخلاصة هذا :

" أن موضوع علم الأخلاق هو الأعمال التي صدرت من الإنسان عن عمد واختيار يعلم صاحبها وقت عملها ماذا يعمل ، وهذه التي يصدر عليها الحكـم بالخير أو الشر ، وكذلك الأعمال التي صدرت لا عن إرادة ولكن يمكن الاحتياط لها وقت الانتباه .

---

(١) في الأخلاق الإسلامية د . على معبد صـ ١٠ .

وأما ما يصدر لا عن إرادة وشعور ولا يمكن الاحتياط لها فليس من موضوع علم الأخلاق "[1].

فائدة علم الأخلاق :

من الحقائق المعروفة والمسلم بها أن كل علم من العلوم يفيدنا في الميادين التي يبحث فيها هذا العلم ، ويمدنا بالنظريات والقواعد التي تجعل المعرفة في كل نواحيه واضحة متكاملة تبصرنا بأصوله وفروعه .

فعلم الطب مثلاً يبين لنا الأمراض المختلفة ووسائل علاجها ويبصرنا بطرق الوقاية وكيفية توقي العدوى من هذه الأمراض ويشرح لنا القواعد الصحيحة التي تجعلنا أصحاء موفوري القوة والعافية .

ولكن هل معنى هذا أن علم الطب يضمن لنا الصحة ويجعلنا دائماً في أمان من الأمراض وشرورها ؟ كلا إن هذا لا يتحقق إلا بأمرين :

الأمر الأول : أن تكون بنية الإنسان قوية قادرة على مقاومة مكروبات الأمراض والتغلب عليها .

الأمر الثاني : أن يتبع الإنسان برضى كل القواعد الصحيحة ولا يهمل فيها ، وإذا أردنا أن نطبق ما قلناه عن علم الطب على علم الأخلاق فإننا نقرر أن علم الأخلاق يبين لنا الفضائل المختلفة ويشرح لنا فوائدها الجمة وكيف أن المتحلي بها يكون الإنسان المثالي ، ويكون أقرب إلى الله وأعلى منزلة ، وأنه بفعلها يحيا حياة صالحة قويمة سعيدة .

---

(١) الأخلاق . أ . أحمد أمين صـ ٤ ، ٥ .

وهنا نتساءل ، هل في استطاعة علم الأخلاق أن يجعلنا صالحين أخيارًا كما تساءلنا في علم الطب هل يستطيع أن يجعلنا أقوياء أصحاء ؟ والجواب عن هذا التساؤل أن علم الأخلاق ليس في استطاعته أن يجعل الناس أخيارًا كما عجز علم الطب أن يجعلهم أصحاء وإنه لكي يكونوا أخيارًا يجب أن يتوفر عاملان :

العامل الأول : أن يكون استعداد المرء طيبًا ، وأن يكون ميالاً بطبعه إلى الخير والتقوى والصلاح ويكره الرذيلة بوازع داخلي من ضميره ووجدانه .

العامل الثاني : أن يتقبل أوامر علم الأخلاق وما يحض عليه من فضائل ، وأن يؤمن برسالة علم الأخلاق ويحملها ويبشر بها .

فعلم الأخلاق إذا يمكن أن تشبهه بالطبيب ، فالطبيب يبصر مريضه بالأضرار التي تنجم عن شرب المسكرات وتناول المخدرات . ويصف له أضرارها ويشرح له تأثيرها الضار في الجسم والعقل معًا ، والمريض له بعد ذلك أن يختار طريقه إما أن يمتنع عن الخمر فتتحسن صحته ، وإما أن يتعاطها فتفسد صحته والطبيب لا يستطيع منعه ، كذلك علم الأخلاق ليس في استطاعته أن يجعل كل فرد صالحًا ورعًا ، ولكن يريه الخير والشر ويبين له آثارهما والإنسان بعد ذلك كله حر في اختيار طريقه إما طريق الشر وإما طريق الخير فعلم الأخلاق إذاً لا يفيدنا ما لم يكن لنا إرادة تنفذ أوامره وتجنبنا نواهيه [1] .

---

(١) انظر : في الأخلاق الإسلامية ص ١٢ .

وعلى هذا فدراسة علم الأخلاق له فوائد متعددة منها :

الفائدة الأولى : تقوية الإرادة الإنسانية في اتباع الطريق القويم .

إن دراسة علم الأخلاق تقوي من إرادة الإنسان وتشد من عزمه فتدفعه إلى الخير بقوة ويؤكد ذلك ما قاله أرسطو عندما تحدث عن الفضيلة فيقول : " فيما يتعلق بالفضيلة لا يكفي أن يعلم ما هي بل يلزم زيادة على ذلك رياضتها على حيازتها واستعمالها أو إيجاد وسيلة أخرى لتصيرنا عملاء وأخيارًا ، ولو كان الخطب والكتب قادرة وحدها على أن تجعلنا أخيارًا لاستحقت – كما قال تيوغنيس – أن يطلبها كل الناس ، وأن تشترى بأغلى الأثمان ، ولكن – لسوء الحظ – كل ما تستطيع المبادئ في هذا الصدد وأن تشد عزم بعض فتيان كرام على الثبات في الخير ، ونجعل القلب الشريف بالفطرة صديقاً للفضيلة ، وفيًا بعهدها " (١) .

الفائدة الثانية : أنها تكسب صاحبها قدرة على التمييز بين الأعمال .

فمن فوائد علم الأخلاق أنه يمكن صاحبه من التمييز بين الأعمال صحيحها من فاسدها .

يقول أحد الباحثين : " إن دراسة الأخلاق تكسب صاحبها القدرة على الدقة في تقدير الأعمال الأخلاقية ونقدها من غير أن يخضع في حكمه للعرف أو العادة أو يتأثر بحكم الزمان والمكان " (٢) .

---

(١) الأخلاق . أ . أحمد أمين صـ ٦ ، ٧ .

(٢) انظر : مباحث في فلسفة الأخلاق . د . محمد يوسف موسى صـ ١٥ ، ١٦ . مطبعة الأزهر ١٩٤٣م .

القائدة الثالثة : يساعد علم الأخلاق على الاهتمام بالعمل الصالح والتمسك به والقصد إليه خصوصًا وأننا نعلم أن " الحياة الاجتماعية أصبحت معقدة وحافلة بالمشكلات الأخلاقية والاتجاهات المتضاربة في السلوك التي قد تختلف فيها وجهات النظر اختلافًا كثيرًا ، حتى إن المرء أحيانًا لا يعرف بأية وجهة نظر يأخذ ، فعلم الأخلاق يبين لنا هذه الوجهات المختلفة " [1] .

الفائدة الرابعة : دراسة علم الأخلاق تكون للإنسان بمثابة الحارس أو قانون يمنعه من الانسياق وراء شهواته وغرائزه الأمر الذي يحتم عليه ضبط هذه الغرائز والشهوات فيعمل على تهذيبها وضبطها .

الفائدة الخامسة : إن دراسة علم الأخلاق تجعل الإنسان يعمل على تحصيل الأخلاق الحميدة ، وتجنب الأخلاق السيئة وهذا هو الهدف الأسمى لأخلاق .

الفائدة السادسة : " تمكين الإنسان من دراسة النظريات القديمة والحديثة المتعلقة بسلوك الإنسان ، واختيار الصالح فيها لسعادة المجتمع ، إذ أن ما يصلح لزمان لا يصلح لغيره ، وما يمتدح في بيئة قد يذم في غيرها".

---

(١) دراسات أخلاقية د . الطنطاوي فراج . صـــ ٢٦ . الدار الإسلامية للطباعة ط ١ -١٤٢١هـــ - ٢٠٠٠م .

الفائدة السابعة : " توضيح الصلات الحقيقية للأفراد وعلاقة كل منهم بالأخر في الهيئة الاجتماعية حتى يباح لكل شخص أن يعيش عيشة مطمئنة " [١] .

الفائدة الثامنة : أسمى غرض يقصد إليه هذا العلم أن يلم الإنسان بما له من حقوق وما عليه من واجبات نحو ربه ، ونحو نفسه ، ونحو الناس .

الفائدة التاسعة : وأخيرًا أن هذا العلم يساعد على : " معرفة التفاصيل الجوهرية للمبادئ الخلقية والأسس التي بنيت عليها حتى نظفر بآراء تعين المجتمع على أن ينهج أقوم الطرق المؤدية إلى الحياة الصحيحة البعيدة عن الخمول والانحطاط " [٢] .

هذه بعض فوائد دراسة هذا العلم الأمر الذي يؤكد على أهميته وأن دراسته ينبغي أن تكون هدفًا لكل صاحب عقل سليم ، فعلم الأخلاق يبحث في الغايات الإنسانية كما أنه يدرس طرق الوصول إليها . لهذا اهتم به العلماء قديمًا وحديثـــًا ودعوا إلى دراسته والاهتمام به .

---

(١) دراسات في الأخلاق . د . طه خضير . صـــ ١٠ ط ٣ ١٤٠٣هـــ - ١٩٨٢م .

(٢) نفس المصدر صـــ ١٠ ، ١١ .

غاية الأخلاق

اختلف علماء الأخلاق حول هذا الموضوع. فذهب فريق منهم إلى القول بوجود غاية من الأخلاق، بينما ذهب فريق آخر إلى القول بعدم وجود غاية للأخلاق و هذا الاتجاه هو الذي ذهب إليه كانط [١] .

و حجتهم في ذلك :

أن وجود غاية للأخلاق فمعنى ذلك أنها وسيلة و أنها تتغير وتتبدل و ليست ثابتة ، و من جهة أخري فالادعاء بأن الأخلاق وسيلة يؤدى إلى تجريدها من كل قدسية و هذا يؤدى بدوره إلى عدم الإلزام و الالتزام اللائقين بها .

أصحاب الرأي الأول القائلون بوجود غاية للأخلاق يرون أن وجود الغاية لا يدل على أن الأخلاق تتغير و تتبدل و لا يدل كذلك على عدم وجود قدسية تكون موضوع احترام الناس ، حتى إن بعض هؤلاء أمثال " جون ديوي" قد ادعى وحدة الوسيلة مع الغاية في الأخلاق من حيث عدم إمكانية انفصال إحداهما عن الأخرى [٢] .

و إذا كانت للأخلاق غاية بناء على رأي الاتجاه الأول فما هذه الغاية ؟

---

(١) انظر : القيم الأخلاقية . د . عادل العوا . صـ ٩٥ مطبعة جامعة دمشق .

(٢) انظر : تجديد في الفلسفة – جون ديوى – ترجمة أمين موسى قنديل صـ ٢٨٣ . مكتبة الأنجلو المصرية .

يقولون إن الغاية من الأخلاق هي السعادة . و أما الاتجاه الثاني فيرى أن له و إن لم يكن للأخلاق غاية فإنها تؤدى على أي حال إلى السعادة بطبيعتها .

إذا الأخلاقيون جميعاً يرون أن الأخلاق تؤدى إلى السعادة سواء أكانت الأخلاق غاية أم وسيلة .

بعض الاتجاهات المختلفة في السعادة الأخلاقية :

توجد اتجاهات مختلفة في السعادة الأخلاقية ، فمن العلماء من يري أن هذه السعادة روحية و منهم من يذهب إلى أنها عقلية وآخرون يرونها مادية ... ، فلننظر ما وجهة نظر أصحاب هذه الاتجاهات الثلاثة:

الاتجاه الروحي :

و فيه يذهب أنصاره إلى أن الروح حقيقة الإنسان و جوهره وأما الجسم فما هو إلا أداة تستعملها الروح . وعلى هذا فحقيقة سعادة الإنسان سعادة روحية و هي لا تتم إلا بالاهتمام بها و تحقيق متطلباتها و تطهيرها وتزكيتها من العوائق المادية و النوازع الشريرة . و بذلك يصبح الجسم ملك لها تسيره حسب مشيئتها و تتحرر من قيود الجسم وأغلاله و متطلباته. و لذا لا ينبغي الاهتمام بالجسم لأن الاهتمام به يقوى النوازع المادية . فتتسلط المادة على الروح فتشقى . و من جهة أخرى فإن الروح هي الحقيقة الباقية بعد فناء الجسد، فالاهتمام بها يعد اهتماماً بالسعادة الحقيقية الدائمة. تلك هي السمة العامة لهذا الاتجاه . لكنه يتشكل بصور متفاوتة ، فهناك

اتجـاه روحـي صرف يتمثل في الاتجاه الصوفي الذي يري أن السعادة هي الرضـا الروحي والسكينة الروحية ، و تكتمل هذه السعادة بصورة مؤقتة عند الوصول إلى الله و معرفته معرفة كاملة عن طريق التطهير و التأمل كما قـال الغـزالي : " إنمـا الوصول إليه (أي الله) بالتجرد من علائق الدنيا والإكـباب بجملـة همـته على التفكير في الأمور الإلهية حتى تنكشف لـه بالإلهـام الإلهـي جلـيها ، و ذلك عند تصفية نفسه من هذه الكدورات ، والوصول إلى ذلك هو السعادة[1] .

أو عـند المكاشـفة كما يقول ابن عربي : " فإن كوشف على أن الطبيعة عين نفس الرحمن فقد أوتي خيراً كثيراً [2] " و قال بعضهم أيضاً " مـن عرف الله تعالى صفا لـه العيش و طابت لـه الحياة و هابه كل شيء و ذهب عنه خوف المخلوقين و أنس بالله تعالى " [3] .

تلـك هي السعادة المؤقتة في الاتجاه الروحي ، أما السعادة الأبدية فتتحقق بعد انتقال الروح من الدنيا إلى عالمها الأول .

الاتجاه العقلي :

يـري هذا الاتجاه أن السعادة هي الشعور الغالب بالسرور في جميع الظـروف و هـذا الشعور يأتي نتيجة إخضاع السلوك لحكم العقل و إتباع قوانيـنه و التمسـك بالفضـائل التي يأمر بها ، و قد ذهب إلى هذا الاتجاه

(١) انظر : ميزان العمل . الإمام الغزالي صـ ٢٣ – مكتبة صبيح ١٩٦٣م .

(٢) انظر : نصوص الحكم . ابن عربي – صـ ٢٣٦ – المطبعة الميمنية ١٩٦٨م .

(٣) انظر : الرسالة القشيرية . الإمام القشيري صـ ٢٤٣ – مطبعة صبيح ١٩٦٦م .

أرسطو و الرواقيون في العصور القديمة ، و ديكارت و كانت في العصور الحديثة ، وإذا كان هناك فارق بين هؤلاء فإنما هو في الدرجة لا في النوع .

فالسعادة الحقيقية عند أرسطو تحصل نتيجة للحصول على جميع الخيرات الداخلية و الخارجية ، و هي الخيرات التامة ، فهو بذلك يجمع بين الخيرات الخارجية الحسية من المال و النعم الأخرى ، و الخيرات الداخلية النفسية من الحكمة و المعرفة و الفضيلة إلا أنه يفضل الخيرات العقلية والنفسية على الخيرات الخارجية أي أنه يرجح الخيرات المعنوية على الخيرات المادية ، فيقول مثلاً : " حسب المرء الرزق الكفاف لتكون حياته سعيدة متى اتخذ الفضيلة قائداً لسلوكه " [١] .

و السعادة عنده درجات :

الدرجة الأعلى : هي التي تحصل في الحياة العقلية لأنها موافقة لأعلى جزء في الإنسان و لهذا فهي حياة قدسية عنده .

والدرجة الثانية : هي التي تحصل في الحياة الأخلاقية الفاضلة. وهذه الحياة حياة إنسانية أما الحياة المادية فيسميها باللذائذ ، ويعدها جزء من السعادة و ليست السعادة ، و ليست من الخيرات الأعلى أيضاً [٢] .

---

(١) انظر : علم الأخلاق إلى نيقوماخوس . أرسطو . ترجمة لطفي السيد جـ ٢ صـ ٣٦٤ . مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤م .

(٢) انظر : المصدر السابق جـ ٢ صـ ٣٥٨ .

والسعادة عند الرواقية هي حالة شعورية بالسرور تحصل بالإنسان نتيجة اتحاد إرادته مع إرادة الله و نتيجة اتحاد عقلة مع عقل الإله أو نظامه في الطبيعة و عن طريق المعرفة لهذا و ذاك . ذلك أنهم يعتقدون أن نظام الكون نظام عقلي أو هو العقل الأكبر – كما يسمونه – و عقل الإنسان هو العقل الأصغر ، ووظيفة هذا العقل الأخير أن يعمل وفقاً لذلك النظام العقلي أو الطبيعة. فالحياة وفقاً للطبيعة هي الحياة الأخلاقية الفاصلة و هي التي تؤدى إلى السعادة الحقيقية ، ومما لا شك فيه أن مثل هذه النزعة الأخلاقية تفترض بالضرورة نظرة ميتافيزيقية خاصة لأنها تقيم همها للخير الأقصى على تفسير عقلي للطبيعة بصفة خاصة ، وللكون بصفة عامة [1] .

و اتجـــاه الرواقـــية يشبه اتجاه أرسطو من جهة و اتجاه المتصوفين من جهـــة أخـــرى ، أمـــا من الجهة الأولى فإنهم قد دعوا إلى الخضوع للعقل ، واختلفوا مع أرسطو عندما دعوا إلى استئصال الشهوات من جذورها، بينما كان أرسطو لا يدعو إلى هذا بل كان يدعو إلى إخضاعها لمنطق العقل . ومن الجهة الثانية فإنهم كانوا يدعون كالمتصوفة إلى محاربة الشهوات و الابتعاد ما أمكن عن الحياة المادية المحسوسة [2] .

و قـــد ذهب الفارابي إلى قريب من هذا الاتجاه . إذ عرف السعادة بأنهـــا اتحاد عقل الإنسان مع العقل الفعال [3] . و يكون ذلك عن طريق التحلي بالفضائل الأخلاقية و الابتعاد عن الشرور و الرذائل الأخلاقية .

---

(١) انظر : المشكلة الأخلاقية . د . زكريا إبراهيم . صـــ ١٤٧ . مكتبة مصر ط ١ . ١٩٦٩م .

(٢) انظر : إطلالة على علم الأخلاق . د . أحلام الصياد . صـــ ٢٦ . الدار الإسلامية للطباعة .

(٣) انظر : أراء أهل المدينة الفاضلة . الفارابي صـــ ٧٩ .

وأما السعادة عند ديكارت فهي الحالة الروحية أو الشعور النفسي بالارتياح الناتج عن خضوع الإرادة لحكم العقل ، أو خضوع السلوك لحكم العقل أو نتيجة الحياة الفاضلة التي لا تخضع إلا للحكمة .

و السعادة عند كانت هي الخير الكامل الذي يأتي نتيجة التمسك بالفضيلة ، و السعادة ليست هدفاً خارجاً عن الفضيلة ، و ليست الفضيلة علة للسعادة أيضاً ، و إنما هما مقترنان ، و الخير الكامل يجمع بين الفضيلة والسعادة معاً .

الاتجاه المادي :

يري أصحاب هذا الاتجاه أن السعادة هي التي يشعر بها الإنسان نتيجة إشباع دوافعه الطبيعية و غرائزه الحسية .

وقد تطور هذا الاتجاه و أخذ صوراً مختلفة على هيئة مذاهب خاصة ، ومنها مذاهب القورينائية أتباع " ارستبوس " تلميذ سقراط ، وقد فسروا السعادة التي نشدها سقراط ، باللذة الحسية واهتموا باللذات العاجلة ، بدلاً من الآجلة ، و نشدوا إشباع الدوافع في حينها و أوصوا بعدم تأخيرها لأنه يؤدى إلى الشعور بالحرمان والكآبة و هذا شقاء نفسي ، و لهذا تجد المسارعة في طلب اللذات ، ولا حياء و لا خجل في طلب اللذات في أية صورة كانت و أية طريقة تيسرت .

و منها مذهب الأبيقورية إتباع أبيقور و قد توسع هؤلاء في مفهوم اللذة فضمنوها اللذات الحسية و العقلية و اللذات العاجلة والآجلة المستمرة ، بل آثروا الآخرة على الأولى . و لا سيما إذا كان يعقبها ألم و

مشـــقة ، ومهمـــا كـــان من أمر ، فإن الغالب على هذا المذهب هو الطابع الحسي ، والاهتمام باللذات الحسية .

و منها مذهب المنفعة التطوري الذي يمثله " هر برت سبنسر " ويري هذا المذهب أن الحياة السعيدة تكون في التوفيق بين مصلحة الفرد و مصلحة الجماعة وهي الفضيلة و بقدر ما يزيد مقدار هذا التكيف يزيد مقدار لذة الفرد و خاصة اللذة النفسية ، و الإنسان يسعى إلى هذا التكيف ، لأنه حاجة بيولوجية ، لا لمجرد مصلحة مصطنعة أو عقد اجتماعي كما يدعي البعض ، و هذا التكيف الذي يسعى إليه الإنسان بالطبيعة لم يكتمل بعد ، وسوف يكتمل فيما بعد لأن الحياة بطبيعتها متطورة ، و هي سائرة نحو الحياة الإنسانية المثالية [(١)] .

أقسام علم الأخلاق :

قسم العلماء البحث في علم الأخلاق إلى مجالين متميزين أحدهما : نظري ، والأخر : عملي ، ولكل منهما منهجه في البحث وغايته التي يسعى إليها .

(١) القسم النظري :

وهدفه وصول الاعتقاد اليقيني بحال الموجودات التي لا يتعلق وجودها بفعل الإنسان وغايته هي الحق .

---

(١) انظـــر : مذهـــب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق . د . توفيق الطويل صـــ ٤١ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٣م ، انظر : إطلالة على علم الأخلاق . د . أحلام الصياد صـــ ٢٤ : ٢٨ .

وقد قسم العلماء العلوم النظرية إلى ثلاثة أقسام :

١ – قسم لا يفتقر في الوجود الخارجي والتعقل إلى المادة وهو الإلهيات .

٢ – قسم يفتقر إلى المادة في الوجود الخارجي دون التعقل وهي العلوم الرياضية .

٣ – قسم يفتقر إلى المادة في الوجود الخارجي والتعقل وهو الطبيعيات .

كالعلم بأحوال الأمور العامة للأجسام أو كالعلم بأحوال المعادن أو غير ذلك . مما يبحث فيه هذا العلم الطبيعي [١] .

فهذا القسم يهتم بدراسة " مظاهر الحياة الأخلاقية ، ويرسم أهم سلوك الجمعيات البشرية ويبحث عن بواعث أعمال الإنسان ، وغاياتهم في الحياة ، ويحدد موضوع الفضيلة في ذاتها ويبين هل هي علم أو لا ؟ وهل هناك منهج خاص لدراستها كما تدرس العلوم أولاً ؟ ويناقش مسائل الالتزامات والمسئولية والعقاب والجزاء الأدبية ، ومن وظائف هذا القسم النظري أيضاً إنه يدرس النظريات المختلفة التي تتعلق بمشاكل التخلفات الإنسانية منذ نشأتها " [٢] .

(٢) القسم العملي :

وهو الجانب الثاني لعلم الأخلاق وفيه تتم دراسات الحقوق والواجبات ما للإنسان وما عليه فهو يبحث في " أنواع الملكات الفاضلة التي

---

(١) انظر : تأملات في فلسفة الأخلاق . منصور على رجب صـ ٢٨ وما بعدها . نشر مكتبة الأنجلو المصرية ط ٣ / ١٩٦١م .

(٢) الأخلاق النظرية . د . محمد غلاب صـ ٧ المطبعة الجديدة / ١٣٣م .

ينبغي على الإنسان أن يتحلى بها ويمارسها في حياته العملية اليومية ، وذلك مثل الصدق والإخلاص والأمانة والوفاء والعفة ، والشجاعة والعدل والرحمة ونحو ذلك . وهذه كلها تمثل أنواعاً من الفعال لها مثال في الخارج ، وقد عرفت كل الأمم والشعوب في القديم والحديث هذا النوع من الأخلاق العملية " [1] .

وقصارى القول في هذا : أن هذا القسم يمثل تطبيقاً عملياً واقعاً للمباحث التي يعرضها القسم النظري وقد قسم العلماء هذا القسم إلى عدة أقسام جاءت على النحو التالي :

١ – الأخلاق الفردية :

وتختص بمصالح الفرد أنه يعرف الفضيلة ليتحلى بها ، ويعرف الرزيلة ليتخلى عنها ، يدرك الخير ليتمسك به ، ويعلم الضر ليبتعد عنه .

٢ – الأخلاق الأسرية :

وتهتم بمصالح جماعة متشاركة في المنزل ويسمى علم تبصير المنزل كواجب الآباء والأبناء والزوجة . وسائر الأقارب والأرحام .

٣ – الأخلاق الاجتماعية :

وهي تختص بمصالح جماعة مشتركة في المدينة وهو علم السياسة وحرمة القتل والغش والظلم والإحسان والعفو والكرم .

ويقول أرسطو : إن علم الأخلاق يتضمن العلوم الثلاثة معاً .

---

(١) مقدمه في علم الأخلاق . د . محمود حمدي زقزوق صـ ١٨ ط دار الفكر العربي ط ٤ .

وقد يضيف بعض العلماء :

٤ – أخلاق الدولة :

كالعلاقة بين الرئيس والشعب .

٥ – الأخلاق الدينية :

وعلى رأسها طاعة الله وشكره والخوف منه والأمل في رحمته .

ولما كانت الغاية من العلوم النظرية معرفة الحق والوصول إليه وأن الغاية من العلوم العملية معرفة الخير والتمسك به . ولما كان علم الأخلاق يبحث في الحق كما يبحث في الخير كان له نسب إلى النظري والعملي معاً :

– أنه علم نظري حينما يبحث عن الحق ، وأنه علم عملي حينما يوجه إلى الخير .

– أن علم الأخلاق علم نظري حينما يطلب من الإنسان أن يدرس الخير كما أنه علم عملي حين يطلب من الإنسان أن يعمل خير نفسه وخير وطنه وخير الناس أجمعين .

– أنه علم من جهة معرفة القواعد وفن من جهة تطبيقها .

فلا يكفي أبداً أن تحفظ ألف كتاب في علم الأخلاق لتكون على خلق عظيم ، بل لابد مع ذلك من رياضة نفسك على الفضيلة ، للتحلي بها وتصبح لك سجية وطبعاً .

فالفضيلة محلها النفس التي تصدر عنها الأفعال ، وليس الفم الذي يصدر عنه الأقوال ، ولقد كان الرسول (ﷺ) مثلاً أعلى للناس أجمعين

وقدوة للعاملين لأنه شرح أقواله بأفعاله ، وتعلم الناس من الجانب النظري من خلال التطبيق العملي ، وصدقت أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – حين قالت في إجابة من سألها عن خلق رسول الله (ﷺ) " كان خلقه القرآن " [1] .

وبناء على هذا يتضح لنا أن علم الأخلاق منه ما هو نظري ، ومنه ما هو عملي وأن أي دعوى لقصره على جانب دون الأخر دعوى خاطئة .
فعلم الأخلاق يجمع بين الجانبين . بين النظرية والتطبيق .

فالغاية من الجانب النظري معرفة الحق وبلوغه ، والغاية من الجانب العملي معرفة الخير والتمسك به وغير خفي أن الخير لون من ألوان الحق .

وعلى هذا يصح القول : إن نقطة التلاقي بين الجانبين تأتي من ناحية الغاية التي يسعى إليها كلاهما فالغاية من الجانب النظري الاستكشاف للفضائل والتوجيه لها . أما الجانب العملي فيراد به التطبيق لهذه الفضائل بحيث يُصبح واقعاً ملموساً في دنيا الناس .

ومن ثم فالنظرية والعملية في علم الأخلاق متلازمان ، ولا يصح الاستغناء بأحدهما عن الأخر .

الأخلاق بين التغيير والثبات :

نعلم جميعاً أن لكل علم غاية ، وغاية علم الأخلاق بشقيه النظري والعملي هي معرفة الحق وبلوغه لتحقيق الخير والسعادة فالسعادة هي الغاية

---

(١) انظر : أضواء على النظريات والمذاهب الأخلاقية . د . محمد عمار صـ ٣٨ ، ٣٩ بدون .

من علم الأخلاق ولا يمكن أن تتحقق هذه الغاية إلا بقبول الأخلاق للتغيير والتعديل .

وهذا الموضوع مثار خلاف بين العلماء والمفكرين قديماً وحديثاً ما بين مؤيد ومعارض وقد انقسم الناس حيال هذه المسألة إلى فريقين :

الفريق الأول : ويذهب أنصاره إلى القول بقبول الأخلاق للتغيير ويأتي على رأس القائلين بهذا . الفيلسوف اليوناني الشهير " سقراط " إلا أنه رأى أن السبيل إلى تغييرها " هو العلم ، فالعلم عنده هو الفضيلة والجهل بما هو مصدر الرذيلة ، أي أن العلم بالفضائل يستتبع التخلي بها والجهل بما هو مصدر الرذيلة " [١] .

وفي المحيط الإسلامي نجد حجة الإسلام الإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ)

فقد رأى أن تغيير الخلق ممكن ، أنه لو لم يكن كذلك لما كان هناك فائدة للوصايا والمواعظ والترغيب والترهيب ، وكيف ينكر الإنسان تهذيب أخلاقه مع قابلية أخلاق البهائم للتغيير [٢] .

وممن أخذ بهذا الرأي (ابن مسكويه ت ٤٢١هـ) وحول هذا يقول :

" ثم اختلفت الناس أيضاً اختلافاً ثانياً ، فقال بعضهم : من كان له خلق طبيعي : لم ينتقل عنه ، وقال آخرون : ليس شيء من الأخلاق طبيعياً للإنسان ، ولانقول إنه غير طبيعي وذلك أنا مطبوعون على قبول الخلق . بل

---

(١) انظر : مقدمة في علم الأخلاق د . محمود زقزوق صـ ٢٠ .

(٢) انظر : ميزان العمل . للغزالي . بتحقيق . د . سليمان دنيا صـ ٢٤٧ . القاهرة / ١٩٦٤م .

ننتقل بالتأديب والمواعظ : إما سريعاً أو بطيئاً . وهذا الرأي الأخير هو الذي نختاره لأنا نشاهده عياناً " [١] .

الفريق الثاني :

وفيه يذهب أنصاره إلى ثبات الأخلاق وعدم تغييرها وما دام الأمر كذلك فلا فائدة من دراسة علم الأخلاق ، ولا فائدة من المواعظ أوالتهذيب فالإنسان حسن الخلق سيظل هكذا وفي المقابل فإن شيء الخلق سيظل على حالة .

وقد استند أنصار هذا الرأي في دعواهم على ما يلي :

١ — أن الخلق صورة الباطن كما أن الخلق صورة الظاهر والخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها أحد ، فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويل ولا الطويل يستطيع أن يجعل نفسه قصيراً ولا القبيح المنظر يقدر على تحسين منظره كذلك القبيح الباطن يجري هذا المجرى كما أن الخلق الظاهر لا يستطاع تغييره فالقبيح باطن لا يستطيع أن يجعل نفسه حسناً .

٢ — حسن الخلق إنما يكون بقمع الشهوة والغضب وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة ، وعرفنا أن ذلك تنغيص المزاج والطبع قد لا ينقطع عن الآدمي فاشتغاله به تضييع زمان بلا فائدة .

هذه حجج الذين يرون أن الأخلاق لا تتغير [٢] .

وغير خفي أن هذا الرأي مجاف للصواب وذلك لما يلي :

---

(١) انظر : تهذيب الأخلاق . لابن مسكويه صـ ٤١ .

(٢) انظر : أضواء على النظريات والمذاهب الأخلاقية . د . محمد عمار صـ ٥٥ ، وانظر : دراسات في علم الأخلاق . د . محمود مزروعة صـ ١١ ط ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠ م .

١ – بناء على هذا الرأي يترتب إنكار دور التعليم والتربية والتهذيب ، وبالتالي يصبح لا قيمة لوجود مثل هذه الأشياء .

٢ – إبطال قوة التمييز والعقل ورفض السياسات كلها ، وترك الناس جميعاً مهملين ، وإلى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم ، وهذا ظاهر الشفاعة جداً (١) .

٣ – كما يترتب على هذا الرأي إنكار الحكمة من إرسال الرسل ، ويعارضون الشرائع . فكلنا يعلم أن الرسل ما بعثوا إلا من أجل إرشاد الناس إلى صالح الأعمال في الدنيا للفوز والفلاح في الآخرة ، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال الخلق الحسن .

٤ – وأخيراً . إذا كان الأمر كما يرى أصحاب الرأي الثاني فإنه لن يكون هناك مبرر لقيام أي شخص بمحاولة أن يحيا حياة أخلاقية أفضل . فالسؤال عن الأفضلية لن يكون له معنى . فلا يوجد معيار للحكم على قانون أخلاقي معين بأنه أفضل أو أسوء من الأخر ، ولا يوجد أيضاً أسس سليمة لتقويم السلوك (٢) .

وبالنظر إلى ما تقدم نقول : بأن الإنسان بأخلاقه قابل للتغيير والتهذيب وأن يتحول من الأخلاق الذميمة إلى الأخلاق الحميدة .

---

(١) انظر : تهذيب الأخلاق لابن مسكويه صـ ٤١ .

(٢) انظر : الفلسفة أنواعها ومشكلاتها . هنترميد . ترجمة . د . فؤاد زكريا صـ ٢٧٢ . الناشر . مكتبة مصر للطباعة ١٩٦٩م .

الفصل الثاني

صلته بغيره

المبحث الأول : صلته بالدين

الأخلاق والدين :

بين الدين وعلم الأخلاق علاقة وثيقة حيث إن الأخلاق هدف سام دعا إليه الدين ، ولتوضيح هذه العلاقة لا بد من تحديد مدلول اللفظين وقد سبق أن عرضنا لمعنى الخلق لذا سنكتفي بعرض معنى الدين .

أ – تعريف الدين في اللغة :

تستعمل كلمة دين في لغة العرب بمعان متعددة منها :

الجزاء ، والملك ، والطاعة ، والخضوع ، والحكم ، والحساب .

فالدين في اللغة اسم لجميع ما يتعبد به الله عز وجل (١) .

كما يأتي بمعنى المكافأة والجزاء أي كما تجازي تجازى بفعلك (٢) .

ب – تعريف الدين في الاصطلاح :

عرف الدين في الاصطلاح بتعريفات كثيرة منها :

هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية ، وقيل هو : مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق : وواجباته نحو نفسه وقيل : الدين هو الإيمان لكائنات روحية (٣) .

---

(١) انظر : القاموس المحيط صـ ١٥٤٦ باب النون فصل الدال .

(٢) انظر : مختار الصحاح صـ ١١٥ .

(٣) انظر : الدين . د . محمد دراز صـ ٣٠ بدون .

هذا عن تصور الغربيين للدين نلاحظ عليها القصور ، فقد ركزت على جانب وأغفلت جوانب أخرى من جوانب الدين تمثل أهمية بالغة بالنسبة للدين ، وتعد من مقوماته بمعناه الصحيح .

أما في التصور الإسلامي فإننا نجد له تعريفات متعددة يعد أشملها وأكثرها وضوحاً ووفاء بمتطلبات الدين مـا قدمه الدكتور " دراز " فيقول : " الدين يعني الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة ، هذا إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجة فنقول : هو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القدرة الإلهية ، وجملة القواعد العملية التي ترسم طريق عبادتها "[1] .

وبهذا التعريف نجد أن الدين الحق الصحيح لا نجده متحققاً إلا في الإسلام والمسلم يعرف أن الإسلام هو الاستسلام لله وحده .

أما عن وجه علاقة الأخلاق بالدين : فإنه يمكن القول إن الأخلاق ضرورة لازمة لمعنى التدين ، فلا يمكن أن نعتبر أخلاقاً من غير أن يكون لها دين ولا يمكن أن يكون هناك دين من غير أن يحتوي على مبادئ وقيم أخلاقية .

ذلك لأن الدين يؤكد على ضرورة الأخلاق من حيث تقويم السلوك الصحيح ، فالسلوك هو مجموعة القوانين الإلهية التي فرضها الله للسير على نهجها في كل ما نملك في حياتنا ، وهي التي فرضت علينا الفرائض ،

---

(١) انظر : نفس المصدر صـــ ٣٠ ، ٣١ .

وحرمت علينا المحرمات ، ومهدت لنا النهج الذي نسلكه ، وخوفتنا ما يجب أن نخاف وحببت إلينا ما نأمل ، ومن ثم كانت الشريعة هي ميزان صلاح المجتمع ، ومن أجل ذلك يمكن أن نسميها قانون السلوك أو ميزانه [١] .

والشيء الثابت الذي لا مراء فيه أن الدين وحده هو أساس النجاة ، حيث إنه يكون بمثابة الرادع للمرء من الإخلال بما تقتضيه الحياة النبيلة الشريفة .

فهو الذي يقوم بتأصيل القيم والمبادئ في النفس البشرية ، وإن النفس المؤمنة تسارع إلى الخير بمقتضى فطرتها ، أما النفس الملحدة فتساق من ظاهرها برهبة السوط وعين القانون ، ومتى أخطأ السوط أو غفل القانون فهناك مجالات رحبة من فوضى الأخلاق والمعاملات وصراع الطبقات وغلبة الأقوياء ، وسريان قانون الغاب [٢] .

فالدين يلعب دوراً مهماً في حياة الإنسان ، فهو يدفعه إلى الأعمال الإيجابية ، كما أنه أقوى رادع يكفه عن اتباع الهوى والشهوات ، كما أنه المصدر الرئيسي لبيان قدسية القوانين الأخلاقية .

فالدين : "يعني خضوعاً لنظام إلهي يتكفل بتربية الناس والحفاظ على أن تبقى فطرهم نقية كما أرادها الله على الإسلام ، والشريعة التي تقدم للناس نظام حياتهم تبنيه على أساس من عقيدة التوحيد ، غير منفصلة بالناس

---

(١) انظر : الدين والمجتمع . د . محمد سعيد العريان صـ ٢٠٩ . نقابة المهن التعليمية الجمهورية العربية المتحدة / ١٩٦٥م .

(٢) انظر : الإلهيات في العقيدة الإسلامية د . محمد المسير صـ ٤٥ . دار الاعتصام للطبع والنشر / ١٩٩١م .

عن واقع الحياة ، وغير متجاهلة لمقتضيات الفطرة والغرائز واحتياجات الحياة ، وهي تربط كل ذلك بغاية حقيقية للتربية هي السعادة في الدنيا بما تستلزمه من تحقيق مقتضيات خلافة الإنسان في الأرض ، وبما تقود إليه من سعادة الآخرة ونعيمها المقيم " [١] .

ومن خلال هذا يتضح لنا أن الدين هو الذي يغذي الأخلاق وينميها وينعشها وبدونه لا تكون أخلاق وبدون الأخلاق لا تكون حياة هذا ما أكده بعض الباحثين فيقول :

" وبدون الدين لا يمكن أن تكون هناك أخلاق وبدون أخلاق لا يمكن أن يكون هناك قانون فالدين هو الذي يربط الإنسان بمثل أعلى يرنو إليه ويعمل له والدين هو الذي يحدد من أنانية الفرد ويكفكف من طغيان غرائزه وسيطرة عاداته ويخضعها لأهدافه ومثله ويربي فيه الضمير الحي الذي على أساسه يرتفع صرح الأخلاق " [٢] .

يقول ابن قيم الجوزية : " الدين كله خلق ، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الدين " [٣] .

وقد اعترف كثير من الباحثين والمفكرين بأهمية الخلق . فها هو الفيلسوف الألماني " فيجيه " يقول : الأخلاق من غير دين عبث . وقال

---

(١) انظر : الأخلاق بين العقل والنقل د . أبو اليزيد العجمي صـ ٤٤ .

(٢) انظر : الإيمان والحياة . د . يوسف القرضاوي صـ ١٧٤ ، ١٧٥ . مؤسسة الرسالة ط ١٩ / ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م .

(٣) انظر : مدارج السالكين . ابن قيم الجوزية جـ ٢ صـ ٣٠٧ . تحقيق محمد حامد الفقي . دار الفكر للطباعة والنشر / ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

الزعيم الهندي " غاندي " إن الدين ومكارم الأخلاق هما شيء واحد لا يقبلان الانفصال ، ولا يفترقان فالدين كالروح للأخلاق (١) .

وقصار القول في هذا : أن الدين هو المصدر الذي من خلاله يعرف الإنسان ما له من حقوق وما عليه من واجبات ، فكثير من الدراسات المتخصصة أكدت أن الدين مصدر أساسي لتكوين أخلاق صالحة ، وبدونه لا تستقيم حياة ولا توجد أخلاق .

يقول الدكتور / عبد الحليم محمود : " العقل إذن قاصر فيما يتعلق بالأخلاق وهو قاصر على الخصوص فيما يتعلق بالإلهيات ، ومن هنا كانت الحكمة في نزول الأديان ، ومن هنا كان السبب في اقتصارها على الأخلاق والدين ، وإذا كانت قد تحدثت في التشريع ، فإن التشريع داخل في نطاق الأخلاق " (٢) .

تعقيب :

تحدثنا فيما سبق عن الدين بعامة والخلق بعامة ، ولكن أمثلتنا التي ضربناها جاءت من الإسلام – بعد أن عممنا القاعدة – لأنه الدين الذي استوعب كل الأديان قبله ، ولأنه الدين الذي لا يتعبد ، إلى يوم القيامة إلا به ، ونرى كذلك أن علم الأخلاق الذي يرتبط بدين ثابت ومستمر كالإسلام ينطبق عليه ما حددناه في طبيعة العلاقة بين الدين والأخلاق ، أما

---

(١) انظر : الإيمان والحياة . د . يوسف القرضاوي صـــ ١٧٤ .

(٢) انظر : المنقذ من الضلال للغزالي . تحقيق . د . عبد الحليم محمود صـــ ١٨٤ ، ١٨٥ . ط دار المعارف ط ٢ .

هذا العلم إذا جرى مرة في ركاب بحوث نفسية تنطلق من نظريات مشبوهة ، أو جرى مرة بين ساحات البحث الاجتماعي ونظر إلى الدين على أنه ظاهرة اجتماعية ، فما هذا العلم أردنا ، ولا هذا الدين الاجتماعي النشأة قصدنا [1] .

ونختم هذا المبحث بهذه الفقرات الدقيقة لعالم جليل " ذلك أننا إذا نظرنا إلى (الدين) من حيث هو معرفة الحق الأعلى وتوقيره ، وإلى (الخلق) من حيث هو قوة النزوع إلى فعل الخير وضبط النفس عن الهوى كان أمامنا حقيقتان مستقلتان يمكن تصور إحداهما بدون الأخرى فتختص أولاهما بالفضيلة النظرية ، والأخرى بالفضيلة العقلية .

غير أنه لما كانت الفضيلة العملية يمكن أن تتناول حياة الإنسان في نفسه ، وفي مختلف علائقه مع الخلق ، ومع الرب ، كان القانون الأخلاقي الكامل هو الذي يرسم طريق المعاملة الإلهية ، كما يرسم طريق المعاملة الإنسانية ، وكذلك لما كانت الفكرة الدينية الناضجة هي التي لا تجعل الألوهية مبدأ تدبير فعال فحسب ، بل مصدر حكم وتشريع في الوقت نفسه كان القانون الديني الكامل هو الذي لا يقف عند حد وصف الحقائق العليا النظرية ، وإغراء النفس بحبها وتقديسها ، بل يمتد إلى وجوه النشاط المختلفة في الحياة العملية فيضع لها المنهاج السوي الذي يجب أن يسير عليه الفرد والجماعة وهكذا يصل القانون الديني — إذا استكمل عناصره — إلى بسط جناحيه على علم الأخلاق كله . بل على سائر القوانين المنظمة لعلاقات

(١) انظر : الأخلاق بين العقل والنقل . د . أبو اليزيد العجمي صـ ٤٩ .

الأفراد والشعوب بحيث يجعلها جزءاً متهماً لحقيقته ويصبغ كل قواعدها بصبغة القدسية ، فتصبح اتباع الفضائل الفردية والاجتماعية نوعاً من الطاعة لأوامر الدين وباباً من أبواب القربات والعبادات فضلاً عن كونه تحقيقاً لمبدأ العدالة الإنسانية ، وتلبية لداعي الفطرة السليمة .

وخلاصة القول في : هذه الناحية التجريدية أن الدين والأخلاق في أصلهما حقيقتان منفصلتا النزعة والموضوع ، ولكنهما يلتقيان في نهايتهما ، فينظر كل منهما إلى موضوع الآخر من وجهة نظره الخاصة ، كمثل شجرتين متجاورتين تمتد فروعهما وتتعانق أغصانهما حتى تظلل إحداهما الأخرى [1] .

---

(١) انظر : الدين . د . محمد عبد الله دراز صـــ ٥٥ ، ٥٦ ط ١٩٥٢م .

المبحث الثاني : صلته بالعلوم الأخرى

نعلم جميعاً أن علم الأخلاق علمياً نظري وعملي ، نظري باعتبار أنه يقوم بوضع القواعد العامة التي تسمو بالسلوك الإنساني ، وتمكنه من الوصول إلى الحق ، وعملي باعتبار أن يدعو إلى تطبيق هذه القواعد في دنيا الواقع بحيث تكون واقعاً ملموساً تحقق الخير بين الناس .

ولما كان هذا العلم يهتم بالسلوك الإنساني كان لابد من وجود صلة بينه وبين العلوم الأخرى التي تهتم بالسلوك الإنساني ، من حيث إنها جميعاً تتجه إلى دراسة الإنسان ؛ إلا أن هذا لا يمنع من أن يكون لكل علم جانب يستقل بدراسته .

وعلم الأخلاق من العلوم التي تحتاج إلى كثير من العلوم الإنسانية لما هو معروف فيه أن الظاهرة الأخلاقية .

" سلوك إنساني ناشئ من عوامل داخلية بالدرجة الأولى من غرائز وانفعالات وغيرهما " [(1)] .

وسنتناول بإيجاز هذه الصلات في الصفحات التالية إن شاء الله تعالى .

١ – اتصال علم الأخلاق بالفلسفة :

العلاقة بين علم الأخلاق والفلسفة على درجة وثيقة من الصلة بالأخلاق أحد فروع الفلسفة ، ومنزلته منها منزلة الجزء من الكل .

---

(١) انظر : عقائد وأخلاق . لجنة في قسم العقيدة والفلسفة ص ١٨٧ ط ١ / ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م . نشر مكتبة الأزهر .

يقول أحد الباحثين " إن الفلسفة بمعناها قد دارت ولا تزال تدور حول طائفتين أساسيتين من المسائل :

١ — المسائل النظرية : ما الكائن ؟ ما أصله ؟ ما المصير الذي ينتظره هو وهو ما تفرع منه ؟ أفي طوق العقل الإنساني أن يضع حلولاً لهذه المسائل ؟ أم أن ذلك في حكم المستحيل ؟ كل هاتيك المسائل تعد مسائل ميتا فيزيقية ما وراء الطبيعة .

٢ — المسائل العملية : كيف يجب أن يكون مسلكنا في الحياة ؟ كيف نربي الناشئين تربية حسنة ؟ ماذا يجب لقيادة الدولة حتى تسير على النضج المستقيم ؟ كل هاتيك المسائل عليها تتوقف الخلاق " أو تستمد من الأخلاق " [1] .

فالأخلاق فرع من الفلسفة ، بل إن علوم الأخلاق تمثل أهم ميادين الفلسفة ، فالعلوم الأخلاقية وكذا المذهب والنظريات المختصة بدراسة الفضائل والقيم تدخل في الإطار العلمي للفلسفة ومعنى هذا أن الأخلاق من هذه الزاوية تعبر عن فلسفة عملية .

فعلم الأخلاق يدخل ضمن تصانيف الفلسفة ، فالفلسفة تنقسم إلى قسمين نظرية وعملية :

---

(١) انظر : المشاكل الأخلاقية والفلاسفة . لأندريه كريسون . ترجمة . د . عبد الحليم محمود أ . أبو بكر ذكرى صـــ ٨ ، ٩ . مطابع دار الشعب / ١٣٩٩هـ . ١٩٧٩م .

فالفلسفة النظرية : تبحث في الله والعقل والعالم التي تنقسم بدورها إلى العلم الإلهي وعلم النفس والعلم الطبيعي وتستند هذه العلوم الجزئية النظرية إلى علم أساسي هو علم البحث في الوجود " الأنطولوجيا "

أما الفلسفة العلمية : فتنقسم إلى علوم الأخلاق والاقتصاد والسياسة وتبحث على التوالي في الإنسان من حيث هو فرد ، والإنسان من حيث هو عضو في أسرة ، ثم من حيث هو فرد في أمة ، وتستند هذه العلوم أيضاً إلى علم أساسي هو الفلسفة العملية العامة (١) .

ومعنى هذا أن الأخلاق واقعة في دائرة الفلسفة العلمية ، وقد اتضح ذلك أكثر في حضارات الشرقيين القدماء ، حيث يخبرنا تاريخ الحياة العقلية بأن كثيراً من الأمم ذوات الحضارات في الشرق القديم ، فقد كانت لها فلسفاتها التي انطوت عليها دياناتها وقد كانت هذه الفلسفات بمثابة المرآة التي تتجلى على صفحتها المعاني الفلسفية والروحية والخلقية . ومن أهدافها أنها ترمي إلى تصفية النفوس من الناحية الروحية ، وإلى القلوب من الناحية الخلقية .

وبناء على ذلك فإن الأخلاق وهي تمثل نمطاً عملياً للفلسفة مهمتها البحث العلمي في الحياة الخلقية وقوانينها ، وتحديد الشروط الواجب توافرها في كل عمل يصلح أن يكون موضوعاً للحكم الخلقي (٢) .

---

(١) انظر : المدخل إلى الفلسفة . أزفلدكولبه صـــ ١٩ . ترجمة أبو العلا عفيفي . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر / ١٩٤٢م .

(٢) انظر : مقال عن المنهج . رينيه ديكارت صـــ ٥ . ترجمة . محمود محمد الخضيري . مراجعة د . محمد مصطفى حلمي . الهيئة العامة المكتاب / ١٩٨٥م .

وعلى ذلك فالأخلاق جزء من الفلسفة الإنسانية ، وعلاقة الأخلاق بالفلسفة علاقة الجزء بالكل . وإذا تقرر أن الأخلاق جزء من الفلسفة الإنسانية فإنما نقصد بالفلسفة الإنسانية كل ما يتعلق بطبيعة الإنسان ، وأيضاً فيما يتعلق بعلم القانون والمنطق ، والجمال ، وهذه العلوم من حيث إنها تمثل ميداناً رحباً لقضايا الفلسفة فإن علم الأخلاق يتصل بها جميعها .

إذن ملتقى هذه العلوم مع الأخلاق يكون من حيث إنها تمثل ما يعرف بالفلسفة الإنسانية والتي تدور بحوثها حول الإنسان من نواحيه النفسية والسلوكية والفكرية وتشمل هذه الفلسفة علم النفس والأخلاق والمنطق[1].

وهذا إن دل فإنما يدل على أن الفلسفة الإنسانية هي ما يقوم به المرء منصرفاً إلى تدبير أمور الحياة العلمية ، ومعالجة مشاكله اليومية الجارية مثل أمور معاشه ومعاملاته وعلاقاته مع التغير [2] .

وقصارى القول : إن الصلة وثيقة بين الفلسفة والأخلاق فالأخلاق جزء من الفلسفة الإنسانية ، والفلسفة الإنسانية جزء من الفلسفة العامة والعلاقة بينهما علاقة الجزء من الكل .

٢ – اتصال علم الأخلاق بعلم المنطق :

العلاقة بين علمي المنطق والأخلاق علاقة وثيقة فكلا العلمين من أقسام الفلسفة وكلاهما علم فلسفي إنساني . إلا أن المنطق يختص بدراسة

---

(١) انظر : مباحث في الأخلاق د . عبد المعطي بركات صـــ ٢٧ . دار الهدى للطباعة . القاهرة ١٤٠٣ هـــ – ١٩٨٢م .

(٢) انظر : مقدمة في الفلسفة العامة د . يحي هويدى صـــ ٢٦ . دار الثقافة للطباعة والنشر . ط ١ / ١٩٧٩م .

الفكر الإنساني من حيث تقويمه وتوجيهه ، أما الأخلاق فتختص بدراسة السلوك الإنساني وما ينبغي أن يكون عليه حيث يتضح ذلك من خلال تعريفه المنطق فقد عُرِّف بأنه " قوانين تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في التفكير " [1] .

أو أنه " آلة عاصمة للذهن عن الخطأ فيما نتصوره ونصدق به أو أن المنطق آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر ".

بمعنى أنه يقوم بوضع القواعد والقوانين التي لو روعيت عصمت الذهن من الوقوع في الخطأ في التفكير ... فالعلاقة بين الأخلاق والمنطق وثيقة ، لأن كل منهما علم معياري ، فالمنطق يتحدث في الفكر الإنساني من جهة سلامته ، والأخلاق ميدانها السلوك الإنساني من حيث ما يجب أن يكون عليه ، فكل منهما يعمل على رفع شأن الإنسان ، المنطق من جهة فكره والأخلاق من جهة سلوكه كما سبق وأن ذكرنا .

وعلى هذا يتضح أن العلاقة قوية بين علم الأخلاق والمنطق وأن هناك قاسماً مشتركاً يجمع بينهما ، وهو الحكم المعياري الذي يضبط قضايا وموضوعات كل منها فكلاهما يبحث في ناحية من نواحي النفس البشرية . المنطق في التفكير ، والأخلاق في السلوك .

٣ – اتصال علم الأخلاق بعلم القانون :

العلاقة بين العلمين وثيقة فموضوعها وغايتها واحدة وهي : تنظيم أعمال الناس لإسعادهم .

---

(١) انظر : توضيح المنطق د . محي الدين الصافي صـ ١٢ . دار الطباعة المحمدية ط ١ / ١٤٠١هـ – ١٩٨٢م .

أما أصل هذه الصلة بين علم الأخلاق وعلم القانون فسلوك الإنسان مظهر وغاية ، حيث يلتقي العلمان في دائرة السلوك البشري ويهدفان إلى إبعاده عن سلوك الرذيلة والحرام . لكن ذلك لا يعني أنهما متماثلان تماماً .

فعلم الأخلاق دائرته أوسع لأنه يأمر بكل نافع وينهي عن كل ضار بينما لا يستوعب القانون كل ذلك بل هناك أعمال نافعة لم يأمر بها القانون كالإحسان إلى الفقير ، وأعمال ضارة لم ينه عنها كالحسد مثلاً ، وذلك لأنه يربط بين ما يأمر به أو ينهي عنه وبين إمكانية الجزاء والعقاب ، وكثيراً ما يكون تنفيذ القانون قسراً ضاراً بأخلاق لها أثرها كالحرية والأمن وغيرها . وكذلك فإنه لا يعاقب القانون إلا على الظاهر والسلوك الخارجي ، لذا فهو لا يدخل نطاق الضمائر ولا يستطيع العقاب لمن أخفى في ضميره شيئاً ، وبينما تصل الأخلاق إلى تربية هذا الوجدان وتبحث في أعماله الخارجية فتجمع بين الباعث والمظهر وينهي عن التفكير في الباعث الخبيث مجرد التفكير [1] .

هذا هو وجه الصلة بين الأخلاق والقانون ، فكلاهما يقوم بوضع القواعد والمعايير التي تصون الإنسان من الوقوع في الفواحش والرذائل ، إلا أن الأخلاق لا تقف مثل القانون عند حد الظاهر من الأفعال ؛ بل تتجاوزه إلى الباطن .

---

(١) انظر : الأخلاق أ . أحمد أمين صـ ٩ ، ١٠ . والأخلاق بين العقل والنقل د . أبو اليزيد العجمي صـ ٣٨ ، ٣٩ ط دار الثقافة العربية ط ١ / ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨ م .

٤ — اتصال علم الأخلاق بعلم الفقه :

العلاقة بين علم الفقه وعلم الأخلاق تبدو هي الأخرى على درجة كبيرة من الاتصال والذي يؤكد ذلك أننا " إذا جئنا إلى الفقه الإسلامي وهو معنى في جزء كبير من أبوابه بالسلوك الإنساني ضبطاً وتحليلاً أو تحريماً أو بياناً للحكم الشرعي فيه ، وما يترتب على ذلك من ردع أو تغيير للسلوك أقول إذا نظرنا إلى الفقه من هذه الزاوية وجدناه يلتقي مع علم الأخلاق في الاهتمام بالسلوك البشري " [1] .

وهذا الاهتمام هو الذي دفع بعض علماء المسلمين في ترتيبه للعلوم الشرعية بأن يجعل الأخلاق تالياً للعقائد وفوق النظرية العامة للشريعة " نضع القيم الأخلاقية العامة في مرتبة تالية للعقائد وأعلى من النظرية العامة للشريعة ، إذ إن هذه القيم هي خلاصة الشريعة إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، ونقصد بالقيم الأخلاقية العامة القواعد الأخلاقية العامة دون التفاصيل العملية والأحكام التنفيذية التي تدخل ضمن العلوم الفرعية وبالتالي تكون في مرتبة أدنى من النظرية العامة للشريعة ومحكومة بضوابطها [2] .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن بين الفقه وعلم الأخلاق قاسماً مشتركاً في بعض الموضوعات المحددة التي أثارت جدلاً مثل قضية حرية الإرادة باعتبارها

---

(١) انظر : الأخلاق بين العقل والنقل د . أبو اليزيد العجمي صـــ ٣٩ .

(٢) انظر : النظرية العامة للشريعة الإسلامية صـــ ٨٨ ط ١ / ١٩٨٣م نقلاً عن الأخلاق بين العقل والنقل صـــ ٣٩ ، ٤٠ .

مناط التكليف والمسئولية . وهو مبحث أخلاقي تناوله الفقهاء الأربعة أولاً ثم تبعهم غيرهم في الاهتمام بهذه القضية ، وقد نسب إلى الفقهاء آراء بل وكتب حول هذا الموضوع ، إذا أضفنا ذلك لما سبق كان لنا أن نفهم حقيقة الصلة بين الفقه وأصوله حيث يمثل الأخير الضوابط العلمية والأخلاقية للبحث العلمي عند المسلمين [١] .

٥ – اتصال علم الأخلاق بعلم السياسة

علم السياسة يدرس أساليب الحكم الذي تحكم به الشعوب حكماً يؤدي في النهاية إلى خير الجماعة المحكومة وسعادتها . فكان السياسة تهتم بأسلوب الحكم ومنهجه وهي بالتالي يجب أن تبنى على الأخلاق الفاضلة وإلا لم تكن أداة خير للإنسانيـــة . ولا لسعادتها بـــل تكون مصدر شر وشقاء [٢] .

وما أحسن كلمة " ساسا نتهلير " أن السياسة ليس لها مبدأ لم تستمده من الأخلاق ، فماذا عسى أن يكون التشريع في المالك إذا كان لا يستند إلى علم الأخلاق ، وما عسى أن يكون حال الحكومة وقد خلت من العدل ؟ وما مصير الجمعيات الإنسانية بلا أخلاق إلا أن العلم الأساسي المتقدم على غيره بفضل أنه شخصي ، والسامي عن غيره بسبب أنه يعطي القانون ولا يأخذ منه إنما هو علم الأخلاق ... [٣] .

---

(١) انظر : الأخلاق بين العقل والنقل صـــ ٤٠ .

(٢) محاضرات في الأخلاق . د . محمود بركات صـــ ٥٣ . ط ٢ / ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .

(٣) علم الأخلاق .إلى نتقوما خوس . لأرسطو نقله إلى العربية أحمد لطفي السيد جـ ١ صـ٧٧ ط دار الكتب / ١٩٢٤ م .

وبذلك فلن تكون السياسة سياسة ما لم تكن ترعى الحق والعدل وترسي قواعد الفضيلة وتجتذ من النفوس الرذيلة ، ولذلك الغرض كان أهم مبدأ أخلاقي في صلاح السياسة هو العدل مع الرعية مما يعطي للسياسة قيادة صالحة في توجيه الشعوب داخلياً وخارجياً ومن ثم كان العدل أساس الملك .

وليس أدل على صلة الأخلاق بالسياسة مما كتبه الفيلسوف المسلم أبو نصر الفارابي في كتابه القيم المعروف باسم " المدينة الفاضلة "

وفيه يتضح العلاقة الوثيقة بينهما حيث إن المدينة الفاضلة عنده تتسم بصفات سامية ، كما أن الحكومة التي تحكم هذه المدينة هي الأخرى لا بد من توافر صفات خاصة وأخلاق رفيعة فيها حتى يتحقق العدل والأمن والأمان في كافة جوانبها .

وقصارى القول في هذا أنه ربما تكون علاقة علم الأخلاق بعلم السياسة من الوضوح إلى درجة لا تجعلنا في حاجة إلى أن نتحدث عنها ، فالإنسان – كما هو معروف – مدني بالطبع ، وما دام الأمر كذلك فلا بد ونحن نتحدث عن حقيقة سلوك الفرد وفضائله أن نبحث عنه في المجتمع الذي ينتمي إليه ، لأن التيارات السياسية في أي مجتمع تترك آثارها في سلوك الأفراد ، وقد بالغ بعض الفلاسفة في هذا الاتجاه لدرجة أن أرسطو قد نظر إلى علم الأخلاق على أنه مجرد فرع من علم السياسة [1] .

---

(١) المذاهب الأخلاقية في ميزان الإسلام د . محمد عيسى زكريا صـ ٣٤ / ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٦ – اتصال علم الأخلاق بعلم الجمال :

من بين العلوم المعيارية التي لها صلة وثيقة بعلم الأخلاق علم الجمال .

فمن المعلوم أن للفلسفة ثلاثة مباحث رئيسية هي :

أ – مبحث الوجود . ب – مبحث المعرفة جـ – مبحث القيم .

والأخير من موضوعات الفلسفة الأصلية . ويختص بدراسة :

١ – الحق وهو موضوع دراسة علم المنطق .

٢ – الخير وهو موضوع دراسة علم الأخلاق .

٣ – الجمال وهو موضوع دراسة علم الجمال .

الأشياء " فإذا أردنا أن نتعرف على الصلة بين الأخلاق وعلم الجمال ، أمكننا أن نقرر حقيقتين : الأولى : أن كلاً منهما علم فلسفي ، والحقيقة الأخرى : أن كلاً منهما علم إنساني ، موضوعه الإنسان ، وبناءً على ذلك يمكن القول إن علم الأخلاق يبحث في الإنسان من ناحية اللذائذ التي تبعثها مناظر الأشياء الجميلة في الإنسان ، ومما لا شك فيه أن كل شيء جميل له أثره في نفس الإنسان ، وبالتالي في سلوكه ، فالجمال يريح النفس ويبعث فيها الثقة ويقربها من السعادة فيرقق الطبع ويلين الجانب فتحسن الأخلاق " [1] .

---

(١) المذاهب الأخلاقية في ميزان الإسلام . د . محمد عيسى زكريا صـ ١٨ .

واللافت للنظر أن القرآن الكريم وهو كتاب الفضائل العليا رأيناه يدعو الناس إلى التعرف على مظاهر الجمال وتدل على جمال الصنعة وعظمة الباري سبحانه وتعالى .

قال تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (1) .

فالمتأمل في هذه الآية يجد أن الله تعالى يلفت النظر للتعرف على مواطن الجمال في هذا الكون فالجمال يبعث على البهجة ، والبهجة تهذيب النفوس وترقق الطباع وتصلح الأخلاق .

---

(1) سورة الأنعام الآية (٩٩) .

٧ – علم النفس :

يتصل علم الأخلاق بعدة علوم وصفية تتعلق بدراسة سلوك الإنسان ، ومعرفة بواعثه وأسبابه فهذه العلوم تشترك مع علم الأخلاق من حيث ارتباطها بسلوك الإنساني . ومن بين هذه العلوم علم النفس .

وقد عرف بأنه : " علم وصفي يبحث فيما هو كائن من سلوك الإنسان من حيث هو مظهر لحياته النفسية ونتيجة لهذه الحياة ، وموضوعه هو البحث في جميع ظواهر سلوك الإنسان طفلاً أو شاباً ... وغايته هي استبطان دواخل النفس الإنسانية للتمكن من إصلاحها وترتيبها " [١] .

فهذا العلم " يدرس الحياة البشرية في ثلاثة حدود :

الحد الأول : الحياة الشعورية التي تتكون من السرور والألم ...

الحد الثاني : الحياة العقلية التي تتألف من الإدراك والذاكرة ...

الحد الثالث : الحياة الإيجابية أو العملية التي تتكون من نتائج الغرائز والعادات والإدارة " [٢] .

والمتأمل في هذه الحدود لا سيما الأخير منها يدرك أنها مقدمة لازمة لعلم الأخلاق ، الأمر الذي يظهر الصلة بينه وبين علم النفس بشكل واحد .

ولأهمية علم النفس لدارس الأخلاق كان الفلاسفة الأخلاقيون يقدمون بين يدي بحوثهم وتأليفهم بحوثاً أخرى في علم النفس . ومن يتأمل (كتاب تهذيب الأخلاق لابن مسكويه) يدرك ذلك تماماً .

---

(١) الأخلاق النظرية . د . محمد غلاب صـ ٥٥ .

(٢) نفس المصدر صـ ٥٥ ، ٥٦ .

وقصارى القول في هذا : أن بين علمي النفس والأخلاق وشائج قربى وصلات قوية .

وإذا كان علم النفس يبحث في قوى الإحساس والإدراك كما يبحث في الإرادة والحرية ويناول كذلك الوهم والخيال والعاطفة ، والشعور بالفرح أو الحزن ، كما يتحدث عن السعادة كما يبحث علم النفس الاجتماعي قضايا تعليمية في عرفه التعليمي،فإنها جميعاً تمثل مقدمة لازمة لعلم الأخلاق .

لكن ينبغي أن تدرك الفرق بين منهجي العلمين ، فعلم النفس يعني برصد السلوك الإنساني وتحليل بواعثه وتسويغ ذلك أو تعليله ليكشف عن القوانين النفسية التي يخضع لها الشخص في سلوكه أما علم الأخلاق فلا يهتم بوصف السلوك قدر الاهتمام بتقويم هذا السلوك ووضع القواعد العامة والمبادئ الخلقية .

كذلك فإن اهتمام علم الأخلاق بوضع المعايير وتحديد القيم ، وبيان مفاهيم الخير والشر والصواب والخطأ يجعله يختلف عن علم النفس الذي يهتم بتفسير السلوك وأنماطه أكثر من غيره ولكن الفروق في المنهج لا تنفي إفادة كل علم من الآخر ما داما معاً يهتمان بالسلوك الإنساني بشكل أو بآخر ، فلا شك أن علم النفس في تفسيره قد يحتاج إلى بعض المبادئ الأخلاقية لتفسير شيوع ظاهرة ما ، كما يحتاج علم الأخلاق إلى بعض نتائج علم النفس لوضع قواعد التغيير لبعض السلوك الذي لا يتوافق مع القواعد الأخلاقية [1] .

---

(1) الأخلاق بين العقل والنقل . د. أبو اليزيد العجمي صـ ٣٢ .

ومن هذا يتبين مدى ارتباط علم الأخلاق بعلم النفس ، فعلم النفس مقدمة يلزم عنها وضع منهج وأسس لترشيد الغرائز وتقويم النفس من الداخل حتى تتوازن لديها الأفعال إيجابياً في بناء واقع صحيح . فالارتباط بينهما واضح بشكل يجعل من الصعب رفض هذا الارتباط .

٨ – علم الاجتماع :

العلاقة بين علم الأخلاق وعلم الاجتماع قوية ووثيقة ، بل إن علم الاجتماع يعد في طليعة العلوم التي توجد علائق بينها وبين علم الأخلاق .

فعلم الاجتماع يدرس المجتمعات الإنسانية وتطورها والقوانين التي تخضع لها في تطورها . وتقدمها أو انحلالها . وبهذا يكشف لنا علم الاجتماع . عن كثير من العوامل التي يتأثر بها المرء في تفكيره وعمله ، كالأسرة والأمة والدين والمبدأ السياسي والنظم التشريعية والاقتصادية التي نعيش تحت ظلالها .

ويقترب هذا العلم " علم الاجتماع " من الأخلاق العملية اقتراباً ملموساً . لأن الأخلاق العملية تشتغل بواجب الإنسان نحو أسرته . وبيئته ووطنه وهي كلها جمعيات بشرية .

ولكن هناك طبعاً بعض الفروق من أهمها :

١ – أن العناصر التي يتكون علم الاجتماع . توجد خارج الجماعة البشرية بل تفرض فرضاً على الأفراد بحيث لا يكون للأفراد منها إرادة واختيار لأن الشخص يشب فيجد نفسه في وسط هيئة اجتماعية يجب عليه الائتمار بأمرها دون معارضة ولا جدل .

في حين أن الأخلاق العلمية . تدرس واجب الشخص التابع من داخل نفسه نحو هذه الهيئات الاجتماعية كما سلف .

٢ – إن من مهمة علم الاجتماع . هي إفهام الفرد أنه مدين بكل ما يتمتع به من نعم للهيئات الاجتماعية ماضيها وحاضرها . أما علم الأخلاق فهو علم يكلف الإنسان بأن يكافئ هذه الجمعيات على نعمها بأداء ما يجب عليه نحوها . وإذا فعلم الاجتماع يؤدي إلى علم الأخلاق مهمة عظمى لأنه ينير له سبل فهم نفسيات الجماعات ، كما ينير له علم النفس سبل فهم نفسيات الأفراد [١] .

وقصارى القول في هذا : أن العلاقة بين علم الأخلاق وبين علم الاجتماع قوية والذي يساعد على تأكيد هذه الحقيقة ما هو معروف من أن الأخلاق لازمت المجتمعات البشرية عبر مراحل سيرها الزماني والمكاني لأنها المنظومة التي تبنى عليها حياة الأمم والجماعات من حيث إنها تعبير عن نداء الفطرة في مكنون النفس البشرية ، لذلك " فأينما ذهبت من هذا العالم ومن صادقت فيه من بني الإنسان فهو يمدح الصفات الحسنة ويبغض الصفات السيئة فيرى الظلم والتعدي مثلاً أموراً قبيحة بذاتها ويرى العدل والاستقامة أموراً حسنة بذاتها " [٢] .

ومن هذا يتضح لزومية الفكر الأخلاقي في البناء الاجتماعي للكيان الإنساني في كل أطوار مراحله التاريخية ، الأمر الذي يؤكد حتمية الاتصال

---

(١) انظر : محاضرات في الأخلاق . د . محمود بركات صـ ٥٢ – ٥٣ ، الأخلاق النظرية . د . محمد غلاب صـ ٦٠، ٦١ .

(٢) انظر : المذاهب الأخلاقية في ميزان الإسلام . د. محمد عيسى بركات صـ ٣١.

بين علم الاجتماع وعلم الأخلاق لأن موضوعهما يتعلق بالإنسان ، فعلم الاجتماع يضع حلولاً وتفسيرات لطبيعة المجتمع في ذاته ، وعلم الأخلاق يقنن تلك العلاقات على أساس من الفضائل الصالحة كي تستقيم بها حياة الأفراد داخل إطار الجماعي .

٩ — علم التربية :

من بين العلوم التي لها صلة بعلم الأخلاق علم التربية .

" وإذا كانت نتائج البحوث النفسية مقدمة لازمة لعلم الأخلاق فإن المبادئ الخلقية التي يحرص عليها علم الأخلاق تعد الرافد الهام — إلى جانب نتائج علم النفس التربوي — في علم التربية في كل فروعه " [1] .

ويمكن تلمس العلاقة بين التربية والأخلاق في عدة نواح :

أولاً : التربية تنطلق من قبول الأخلاق للتغيير بالتأديب والتعويد وهذه مسألة يرتكز عليها علم الأخلاق من جهة ، ويضع من أجل تطبيقها المبادئ العامة لما ينبغي أن يكون من جهة أخرى وعليه فإن علم التربية يستفيد من هذه المبادئ وهو يخطط لتربية النشء في مناهج نظرية وعملية .

ثانياً : تنطلق التربية في اهتماماها من اعتقاد أن الإنسان ذو جوانب وملكات ، وهو جسد ، وبه عقل ، وله روح ، ولكل جانب من هذه

---

(١) الأخلاق بين العقل والنقل د . أبو اليزيد العجمي صـ ٣٢ .

الجوانب مطالباً لاستقامتها حتى لا يضر جانب الآخر ، أو بغيره بعامة . لذا فلابد من مبادئ لحفظ الجسد ، ومبادئ لتنمية العقل ومبادئ لترقية الروح والوجدان . هذه المبادئ هي اهتمام علم الأخلاق ، فمن الخير أن يحفظ الإنسان جسده وأن يستخدمه فيما خلق له ، ومن الشر عكس ذلك ، ومن الخير أن يعمل الإنسان عقله فيما أتيح له من مبادئ ونصوص ، وما حوله من كون ومخلوقات كي يستطيع التعامل معها دون إرهاق لنفسه ، ودون إخلال بانسجام الكون وهو جزء منه ، ومن الشر عكس ذلك .

ومن الخير أن يرقي الإنسان روحه وينمي وجدانه بالصلوات والتأمل وفعل الخير كي يظل جانب الإنسانية وهو المميز له قولاً وفعالاً ، ومن الشر عكس ذلك .

إذاً هذه المبادئ تخدم علم لتربية وهو يخطط لمناهجه ويضع برامج تدريباته لكل أنواع التربية بدنية أو عقلية أو روحية .

ثالثاً : ينظر علم التربية إلى المربين على أنهم أفراد يعيشون في مجتمعات وأنه لابد من التوافق بين الفرد والمجتمع حتى لا يختل التوازن ، وهذا يحتاج إلى بيان الملائم من السلوك الفردي للجماعة ، والضوابط التي تحفظ ذلك ، كل ذلك في ضوء نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى الكون وإلى خالقه أو القوة العليا حين يكون الشخص غير مؤمن بالديانات ، هذا كله

عمل علم الأخلاق إذ يعني بتحديد المعايير التي بها يكون الفعل متوافقاً أو غير متوافق مع الجماعة التي يعيش الفرد بينها .

من كل هذا يتبين لنا أن علاقة وثيقة موجودة بين علم الأخلاق وعلم التربية [١] .

وهذه الصلة الوثيقة بين علم الأخلاق وعلم التربية يمكن أن تفيد منها مناهج التعليم وخططه إذا أريد لهذا العالم أن يوفر جهداً ضائعاً في الانحراف من المتعلمين الذين لم تنجح مناهج تربيتهم في تحقيق انتمائهم إلى أوطانهم أو جماعاتهم فضلاً عن انتمائهم للإنسانية جمعاء ، كما لا يخفى أن هناك علاقة وثيقة بين نمو قدرة التفكير والتأمل والنمو الخلقي عند الفرد ، وكانت هذه العلاقة موضع اهتمام المربيين والمتخصصين في هذا المجال [٢] .

إذا كنا قد ذكرنا علاقة علم الأخلاق ببعض العلوم فإنما قصدنا العلاقة المباشرة بينه وبينها ، ولكن ذلك لا يعني انقطاعه عن علوم أخرى هي تهتم بالإنسان في غير مجال سلوكه ، وهي ما تسمى بالعلوم التجريبية فهو يستفيد من نتائجها كما إذا عرفنا أن هذا الغذاء أو الشراب يمثل خطراً على صحة الإنسان ، فإنه من مجافاة الخلق الاقتراب منه ، لأن القاعدة العقلية فضلاً عن الشرعية ألا يظلم الإنسان نفسه فضلاً عن قتلها .

---

(١) انظر المرجع السابق صـ ٣٣ .

(٢) نفس المرجع صـ ٣٤ ، ٣٥ .

ويقاس على هذا غيره من نتائج العلوم الأخرى لأن جميع العلوم في نشأتها بل وفي غاياتها نشأت لصحة الإنسان وإسعاده وتخفيف الآمة .

كذلك فإن علم الأخلاق بما يضعه من ضوابط عامة يمكن أن يحرس مسيرة البحث في هذه العلوم إذ من الأخلاق العلمية الأمانة والصدق والدقة والموضوعية ، ثم من أخلاق العلم أن تكون الغاية نبيلة ، وألا تتعارض مع الغرض من خلق الإنسان ولا تعوق أداءه لرسالته في الحياة .

ومن أخلاق العلم كذلك عدم كتمانه لأنه لا يفيد الناس حال كتمانه ، بل يعد الجهد الذي بذل في تحصيله نوعاً من العبث ، لذا عد الإسلام كتمان العلم جالباً للعنة من الله ومن الناس ، وكان جزاؤه أن يلجم بلجام من نار يوم القيامة .

وهذه الضوابط عامة لا تختلف من عصر إلى عصر ، وهي تعدل أو تحرس مسيرة البحث العلمي ، الأمر الذي يجعل علم الأخلاق منبثاً في كل مجالات الحياة المعرف منها والسلوكي وحسبك تقديراً لصلة هذا العلم بغيره من العلوم أنه يتدخل حتى في الصناعات والحرف ويتعارف أصحابها على أخلاق لها حتى وإن لم يكونوا من الدارسين [١] .

---

(١) انظر : الأخلاق بين العقل والنقل . د . أبو اليزيد العجمي صـ ٤٠ . ٤١ .

الفصل الثالث

الخلق والضمير والعوامل المؤثرة فيهما

المبحث الأول : الخلق

تعريف الخلق :

عرف بعضهم الخلق بأنه " عادة الإرادة " يعني أن الإرادة إذا اعتادت شيئاً فعادتها هي المسماة بالخلق ، فإذا اعتادت الإرادة العزم على الإعطاء سميت عادة الإرادة هذه الكرم .

وعرفها بعضهم : بأنها تغليب ميل من الميول على الإنسان باستمرار ، فالكريم هو الذي يغلب عليه الميل إلى الإعطاء ويوجد عنده هذا الميل كلما وجدت الظرف الداعية إليه إلا في أحوال نادرة ، والبخيل هو الذي يغلب عليه الميل إلى اكتناز النقود ويفضله على البذل .

وعلى هذا يكون الرجل الطيب هو الذي تغلب عليه الميول الطيبة باستمرار ، وعكسه الرجل الخبيث أو الشرير .

أما من لا يتغلب عليه ميل خاص باستمرار فلا خلق له ، فالذي يميل إلى الإعطاء فيعطي مرة ، ويميل إلى الادخار في ظروف مثل ظرف الإعطاء فيبخل فليس كريماً ولا بخيلاً وليس له خلق ثابت ، وكثير من الناس لا أخلاق لهم بهذا المعنى ، تختلف ميولهم وأعمالهم من آن لآخر . يقابلهم الكريم فيحبب إليهم الكرم فينفقون ، ويقابلهم البخيل فيدعوهم إلى الشح فيضنون .

من هنا نفهم أن الخلق صفة نفسية لا شئ خارجي ، أما المظهر الخارجي للخلق فيسمى " سلوكاً " أو معاملة ، والسلوك دليل الخلق ومظهره ، فإذا رأينا معطياً يعطي باستمرار في الظروف المتشابهة استدللنا من ذلك على وجود خلق كريم عنده وهكذا .

أمـــا العمل الفذ الذي يحصل مرة أو مرتين فليس دليلاً على الخلق .

وشـــدد في تكوين العادات الطيبة ، أي في تكوين الخلق الثابت الذي يصدر عنه الأعمال الصالحة باستمرار ، وكما أن الشجرة تعرف بالثمرة ، فكذلك الخلق الطيب يعرف بالأعمال الطيبة التي تصدر عن صاحبه بانتظام [١] .

ويعرف ابن مسكوب الخلق فيقول : " الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالهـــا مـــن غير فكر ولا روية . وهذا الحال تنقسم عنده إلى قسمين : أحدهمـــا : ما يكون طبيعياً من أصل المزاج ، كالإنسان الذي يحرك أدنى شئ نحو الغضب ويهيج لأقل سبب ، وكالذي يجبن من أيسر شئ كمن يفرع من أدنى صـــوت يطـــرق سمعـــه . . . الخ . والـــثاني ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريـــب ، ربما كان مبدؤه بالرؤية والفكر ثم يستمر عليه أولاً فأول حتى يصير ملكة وخلقاً " [٢] .

والخلـــق لـــيس صفة للنفس في جملتها ، ولكنه يتعلق بأحد جوانبها فقط وبيان ذلك أن للنفس قوى مختلفة تتمثل في أمور ثلاثة هي :

١- جانب العقل والمعرفة .

٢- جانب الشعور والعاطفة .

٣- جانب القصد والإرادة .

والخلـــق يتعلق بالجانب الأخير فقط من جوانب النفس وهو جانب القصد والإرادة . ولا تدخل أفعال الجانبين الآخرين في دائرة الأفعال الخلقية

---

(١) الأخلاق أحمد أمين صـــ ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) انظر تهذيب الأخلاق لابن مسكويه صـــ ٤١ .

إلا إذا استعملا بطريق العقد والعمد في الإصلاح أو الفساد . فهذا الاستعمال نفسه يدخل حينئذ تحت سلطان القانون الأخلاقي بوصفه من عمل الإدارة ، وليس بأي وصف أخر [١] .

ويوضح الأستاذ / أحمد أمين ذلك قائلاً "فكل سلوك لابد أن ينبع من مصدر نفسي ، وليس يقنع الباحث في الأخلاق بالنظر إلى ظواهر الأعمال كما لا يقنع الجغرافي بالنظر إلى ظواهر الجو ، بل لا يقنع إلا إذا عرف عللها وأسبابها ، وبمعرفة أسس السلوك نستطيع أن نعالجه إن كان سيئاً ونشجعه إن كان حسناً فلو أنك قلت للكاذب : لا تكذب وكررت ذلك على سمعه مراراً ولكنك تركت حالته النفسية التي يصدر عنها الكذب كما هي لم يكن لقولك أثر ، ولكن لو بحثت عن حالته النفسية وعرفت السبب الذي من أجله كذب ثم عالجت ذلك بما يناسبه كان هذا علاجاً ناجحاً ، وقد أثبت العلم أن أخلاق الإنسان ليست حظاً يمنح حسب المصادفة والاتفاق ، ولكنها تصلح وتفسد وترقى وتنحط تبعاً لقوانين ثابتة لا تختلف ، و إنا إذا عرفنا هذه القوانين وعملنا على وفقها استطعنا أن نصلح أخلاق الإنسان بقدر ما تسمح طبيعته [٢] .

وهذه القوانين سواء منها ما يتعلق بنفس الإنسان أو ما يتعلق بالبيئة التي تحيط به معقدة مركبة [٣] .

---

(١) انظر : دراسات إسلامية د . محمد دراز صـ ٨٨ دار القلم بالكويت ١٩٨٠م .

(٢) انظر : الأخلاق . أ. أحمد أمين صـ ١٣ ، ١٤ .

(٣) نفس المصدر صـ ١٤ .

ولكن رغم هذا التعقيد تعد من العوامل الفعالة في تكوين الخلق من الناحية العملية بل لها أثرها الفعال ، سواء أكان سلبياً أم إيجابياً لذا وجب علينا أن نوضح هذه العوامل ، فنقول وبالله التوفيق .

للخلق عدة مؤثرات تؤثر في تكوينه وهي على النحو التالي : -

أ - العادة . ب - الوراثة . جـ - البيئة .

أولاً : العادة : -

تعد العادة من العوامل المؤثرة في تكوين الخلق وهي : (ما استمر الناس عليه على حكم المفعول وعادوا إليه مرة بعد أخرى) [١] .

فالناس يعتادون فعلاً ، وبكثرة تكرار الفعل والمواظبة عليه يتكون الخلق لديهم ، ومن هنا كان من تعريفات الخلق (عادة الإدارة) .

(فعندما يراد تحويل المرء من خلق ذميم إلى أخر حميد ، أو يراد تكوين خلق معين لــه لم يكن موجوداً من قبل يحمل المرء على إتيان هذا العمل وتكراره ، ويعود ذلك مرة بعد أخرى ، مع استعمال وسائل الإغراء والترغيب ، والتي من شأنها أن تحبب إليه إتيان هذا الفعل الحميد والإقبال على ممارسة برغبة صادقة وميل أكيد ، واستخدام وسائل التنفير من ضده ، بحيث تصير نفرته منه وابتعاده عنه ميلاً ورغبه بل طبيعة وخلقاً . .) [٢] .

فالمواظبة على تكرار الفعل تجعل ممارسته عادة لازمة وطبعاً دائماً ، حتى يصدر عن الإنسان تلقائياً من غير فكر ولا رؤية ، بل يكون بمثابة انطباع للنفس وحالاً لها يدفعها إلى الفعل ، فلا تحتاج إلى تفكير .

---

(١) التعريفات للجرجاني صـ ١٨٨ .

(٢) العقيدة والأخلاق د . محمد بيصار صـ ٢٠٩ ط ٢ ١٩٧٠ مكتبة الأنجلو المصرية .

فمن يسخو مرة أو مرتين أو ثلاثة عفواً وتحت تأثير معين لا يمكن أن نصفه بخلق السخاء ، وإنما يتصف بهذا الخلق عندما يصير السخاء عادة لازمة وملكة راسخة تكفل صدور فعل السخاء عن نفسه الراضية وقلبه المطمئن ، وعن استلذاذه له واطمئنانه إليه وانشرح صدره به [(١)] .

ولهذا رأى ابن مسكويه أن الخلق منه " ما يكون طبيعياً ومنه ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب ، وربما كان مبدؤه بالرؤية والفكر ثم يستمر عليه أولاً فأولاً حتى يصير ملكة وخلقاً " [(٢)] .

و قصارى القول : في أن العادة أثر كبير فالإنسان " ينشأ في بيئة يكتسب منها معارفه ، ومهاراته وأخلاقه وهذه الأشياء منها ما هو حق ومنها ما هو باطل ، ومنها ما هو صالح ومنها هو فاسد ، وبمقتضى نشوئه في هذه البيئة الاجتماعية يتكون لديه بدافع الإنسانية خلق التعصب لأهله وعشيرته وقومه ، والتعصب لجميع ما هو في بيئته من مفاهيم وعادات وأخلاق ، لأنه يتصور أنه بتعصبه هذا بدافع عن كيانه الذاتي ، ولكنه دافع ليس في محله ، إذا هو دافع عن الانحراف " [(٣)] .

ثانياً: الوراثة هي انتقال الخصائص من الأصول إلى الفروع حيث إن الفرع يشبه أصله وأن الأصل يتيح مثله ، فنرى الأطفال يشبهون أصولهم ، ويحملون خصائصهم وإن بعدت الأصول .

---

(١) انظر : نفس المصدر صـ ٢١٠ .

(٢) تهذيب الأخلاق صـ ٤١ .

(٣) صراع مع الملاحدة . عبد الرحمن حبنكه صـ ٣٨٨ . دار القلم دمشق ط ١ ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م

وقد أصبح قانون الوراثة على الإجمال من القوانين الثابتة الصحيحة التي لا مجال لشك فيها وأن كان هناك خلاف كبير بين العلماء فيما يورث وما لا يورث وفي القدر المورث والآن نذكر أنواع ما يورث : –

(١) وراثة الخصائص الإنسانية : في كل يرث الناس من أصولهم صفات مشتركة كالشكل والحواس والشعور والعواطف والعقل والإدارة . فهي تنزل للإنسان من أسلافه جيلاً عن جيل ، وبهذه الخصائص الإنسانية المورثة تغلب الإنسان على الطبيعة في أمور فشل فيها سائر الحيوان .

(٢) الخصائص القومية : إن وراء عادات كل أمة خصائص يتوارثها خلف عن سلف ، وهذه الخصائص تجعل أفراد كل أمة تخالف أفراد الأمة الأخرى ، لا في سحنتها فحسب ، بل صفاتها العقلية أيضاً كما قرره علماء مميزات الأجناس البشري ، فالزنوج والمغول والأجناس اللاتينية وغيرهم لهم صفات خاصة يمتازون بها عن غيرهم ، وكما أنك إذا رأيت إنسانا عرفت أن هناك صفات عقلية وخلقية لكل أمة ، وهذه الصفات الخاصة تحدد مقدار استعداد الأمة للرقي والنجاح في الحياة .

(٣) خصائص الأبوين : كل ولد يرث من أبويه صفاته ولست أعني عاداتها ولا صفاتها المكتسبة [1] في حياتهم ، ولكن عن الصفات الأساسية كالغرائز فنحن نرث طباع آبائنا ، كما نرث قامتهم وشكلهم ، لذلك قيل : إن أردت ولداً صحيحاً قوياً فتخير له آباء أصحاء أقوياء .

---

(١) الصفات المكتسبة : هي الصفات التي يكتسبها الإنسان من البيئة التي يعيش فيها من قريب أو بعيد ولكن ليس بلازم انتقالها إلى الفروع .

فليس الطفل الذكي ذكياً اتفاقاً ، ولا الكسول ولا جامد العواطف ، بل كل هذه الأوصاف لها علاقة كبيرة بالمجموع العصبي الموروث من أسلافه ، وكل غرائزنا صدى لغرائز آبائنا .

وكثيراً ما يحدث في الوراثة أن الأبوين تكون لهما صفات خاصة ، ولا تظهر هذه الصفات في نسلهما ، ولكن تظهر بعد ذلك في الأحفاد أو أبناء الأحفاد . وبعبارة أخرى قد تظهر في الأجيال التالية للجيل الواحد كما شوهد في أب مصاب بعمى اللون يلد بنات ليس لهذه العاهة أثر فيهن حتى إذا نسل هؤلاء البنات ذكوراً ظهرت فيهم هذه العاهة ، وأيضاً قد تلد الأم الصحيحة أبناء يموتون بمرض قد أصيب به جدهم الأدنى أو الأعلى . ويقال مثل ذلك في الأمور العقلية والخلقية .

ويجب أن نلاحظ أننا لسنا نرث من آبائنا غرائز نامية ولا ملكات ناضجة ، إنما نرث منهم استعدادات وجراثيم فقط فلم يولد عباس العقاد أديباً ، ولا نابليون حربياً ، ولكنهم ولدوا وفيهم استعدادات كامنة صادفتها بيئة صالحة لنموها فنمت ، وذلك علة النبوغ ، وكثير من هذه الاستعدادات والقوى الكامنة تتأخر في الظهور وربما لا تظهر إلا بعد سنين ، إما لأن البيئة لم تكن صالحة لنموها أو نحو ذلك ، وذلك هو الشأن في بعض الأمراض الجسمية ، فليس يرث الطفل نفس المرض ، ولكن قد يرث من أبيه الاستعداد للإصابة بهذا المرض ، فإن صادف هذا الاستعداد بيئة ساعدت على الإصابة به أصيب وإلا لا — وكذا الأمراض الخلقية فليس يرث الناشئ من أبيه الكبر ولا الذلة ولا الميل إلى المسكرات ، ولكن يرث الاستعداد لذلك وتتوقف الإصابة على البيئة [1] .

---

(١) انظر : الأخلاق لأحمد أمين صـ ٣٩ ، ٤٣ .

ثالثاً : البيئة

وبجانب ما سبق يوجد عامل آخر يؤثر في تكوين الخلق ، وهو عامل البيئة بنوعيها الطبيعية والاجتماعية .

تعريفها : هي كل ما يحيط بالإنسان ويؤثر فيه تأثيراً كبيراً أو قليلاً بطريق مباشر أو غير مباشر منذ بداية حملة إلى لحظة وفاته كالظواهر الطبيعية والنظم الاجتماعية والعلاقات الشخصية بينه وبين الأفراد .

تقسيمها : وهي تنقسم إلي :

أ – بيئة طبيعية . ب – بيئة اجتماعية .

البيئة الطبيعية : هي كل ما يحيط بالإنسان من مظاهر الطبيعة كالأرض والهواء والأنهار والبحار والحرارة والبرودة ....

والبيئة الاجتماعية : هي ما سوى ذلك مما يحيط بالإنسان ويؤثر فيه كرحم أمه (١) والمترل وأماكن العبادة والتعليم والمؤسسة الحكومية والشعبية ..... الخ .

أثر البيئة الطبيعية في الأخلاق : للبيئة الطبيعية أثر كبير في حياة الإنسان ويلاحظ ذلك في اختلاف سكان الأقاليم في اللباس والغذاء والصحة والمرض وصفاء الفكر واضطرابه ، وحدة المزاج وهدوئه ، وقد

---

(١) يظن بعض الناس أن وجود الطفل في رحم أمه بيئة طبيعية ونسوا أن الأم تتأثر بمظاهر المجتمع وتؤثر بالتالي على الطفل الجنين .

أدرك ذلك منشئ علم الاجتماع والمفكر المسلم عبد الرحمن بن خلدون فعقد فصلاً لأثر الهواء في أخلاق البشر .

ربط فيه بين درجة الحرارة وبين درجة الفرح والانشراح من جهة وبين درجة البرودة ودرجة الحزن والانطواء من جهة أخرى ، وقد طبق ذلك على بلاد السودان ومصر والبلاد الساحلية وأهل فاس في المغرب ويقول عن سكان الأقاليم المعتدلة إنهم اعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً ، وعن سكان البلاد البعيدة عن الاعتدال أنهم أبعد عن الاعتدال في جميع أحوالهم[1] .

والرأي الصواب هو الإقرار بتأثير الظواهر الطبيعية في الإنسان مع عدم المبالغة في تأثيرها على أخلاقه ؛ لأن الله سبحانه قد منح الإنسان من القوى والأجهزة ما يستطيع أن يكيف نفسه ويسلك سبيل الفضائل وإن كان يحيا في أبعد الأقاليم وبخاصة في عهد التقدم العلمي الذي هيأ للإنسان أن يكيف الجو المحيط به كيف يريد ويتبين ذلك الآن في دول الخليج التي هي من المواطن الحارة ، ومع ذلك يمكن للإنسان فيها أن يعيش في بيئته و موطن عمله و سيارته في درجة برودة الشتاء .

البيئة الاجتماعية : ومن مظاهرها :

(أ) رحم الام : و هو أول بيئة اجتماعية منها يأخذ الطفل بداية غذاء حياته و بواسطة هذا الغذاء يتأثر هذا الجنين بالأحوال النفسية

---

(١) انظر : مباحث في علم الأخلاق د . قنديل محمد صـ ٢٣ ، ٢٤ .

والصحية للأم و بكل ما يحيط بها من مؤثرات و يكتنفها من ظروف ، وذلك نجـد الأطـباء يمنعون الحامل من تناول بعض المضادات الحيوية و غيرها من الأدوية كي لا تؤثر على الجنين جسمياً أو نفسياً .

و يروي " توماس هوبز " أحد مفكري الإنجليز في القرن السابع عشر أنه عاش طول حياته يغلب عليه الانكماش و الخوف بسبب ما اعترى أمه من الاضطراب و الانزعاج عندما أقترب الأسطول الحربي الأسباني من شواطئ إنجلترا و كان إذ ذاك جنيناً في بطن أمه [١] .

و لعل هذا المعنى أحد الأسباب التي جعلت الرسول (ﷺ) " يحث المؤمن على أن يجعل الأساس الأول في اختيار زوجته مدى تمسكها بالأخلاق الفاضلة يقول الرسول (ﷺ)« تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ » [٢] .

لأن ذات الدين تكون قوية الإرادة مطمئنة القلب متحلية بأنبل الصفات و أطيب الخلق[٣].

(٢) الأسرة : دورها مهم في حياة الطفل بسبب شدة قابليته للتأثر في هذه الفترة عن طريق الاقتداء و التقليد وغالباً ما يسلك الطفل في كثير من الأحوال نفس مسلك والديه في الأقوال والأفعال ، وينفعل بنفس انفعالاتهما مستجيباً لنفس المؤثرات التي تثير فيهما هذه الانفعالات و عن طريق ذلك يكتسب الطفل كثير من الخبرات والاتجاهات و القيم .

---

(١) انظر : مباحث في علم الأخلاق د .قنديل محمد صـ ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) رواه البخاري . كتاب النكاح . باب الأكفاء في الدين . حديث رقم ٥٠٩٠ .

(٣) انظر : مباحث في علم الأخلاق د .قنديل محمد صـ ٢٥ .

فإذا كان الوالدان يراعيان الفضائل في سلوكهما و يجتنبان الرذائل نشأ الطفل مثلهما في ذلك.

ولهذا تجد غالباً أطفالاً مرتادي المساجد يحبون المساجد وأطفالاً مرتادي السينما و المسارح و ملاعب الكرة يحبون الملاهي .

كما أن لتوجيهات الوالدين أثرها التي قد تلازم الطفل طوال حياته ، و من الأمثلة في ذلك أن أحد الرجال غلب عليه الاستعلاء والتكبر واحتقار الناس و حاول أن يتخلص من هذا الخلق السيئ ولكنه لم يستطع فظن أنه ورثه من أصوله ، ولكنه عندما ذهب إلى الطبيب النفسي تبين بالتحليل أنه كان مدللاً في عهد الطفولة ، وأن والديه كانا يأمرانه بعدم الاختلاط بأفراد المجتمع و يوحيان إليه بأنه مخلوق متميز عن الناس بأصلة وحساسيته ودمه النقي ، وقد رسخ في نفسه هذا التوجيه بطريقة لا شعورية فغلب عليه سلوك الصلف والتكبر .

و من هنا ندرى المغزي الدقيق من هذه النصوص الإسلامية التي تضع بعض الأصول التربوية الاجتماعية الإسلامية : يقول الله تعالى :" ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ... ﴿١٣٢﴾ ﴾[1].

ويقول الرسول (ﷺ) : « كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ

---

(١) سورة طه من الآية (١٣٢) .

فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ – قَالَ وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ – وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » [1] .

وهذه التوجيهات القرآنية والنبوية تحث الآباء و الأمهات على أن يكونوا قدوة حسنة لأبنائهم في التمسك بالفضائل والبعد عن الرذائل حتى يهيئوهم في المستقبل ليكونوا أهل الأخلاق الكريمة .

(٣) دورا لتعليم : بعد أن يبلغ الطفل سناً معينة يذهب إلى المدرسة فيها يتلقى معارف جديدة توسع مداركه وتزيد من خبرته بالحياة كما أنها تنمي ما اكتسبه من أسرته من أخلاق فاضلة وتصحح وتقوم ما عسى أن يكون البيت قد قصر فيه : فليس كل الأباء على المستوى المطلوب من حسن التصرف وسعة الإدراك والمرونة اللازمة لعملية التربية .

أما المدرسة فوظيفتها الأولى أن تربي وتعلم طبقـاً لمنهج تربوي مدروس ومفصل وبواسطة مدرسين قضوا شطراً كبيراً من حياتهم في اكتساب خبرات التوجيه والتعليم [2] .

وفي المدرسة تكون للطفل علاقات اجتماعية جديدة بينه وبين أساتذته وزملائه ، ويكتسب خبرات أخلاقية مغايرة لما اكتسبه في أسرته ، ففيها الانضباط والمحاسبة على الأعمال ، والنجاح المترتب على الجد ، والرسوب المترتب على الكسل وغير ذلك مما له أثر بالغ في أخلاقه .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه . كتاب الجمعة . باب الجمعة في القرى والمدن . حديث رقم ٨٩٣ .

(٢) مباحث في علم الأخلاق صـ٢٥ ، ٢٦ .

(٤) الصداقة : مما لا شك فيه أن للصداقة دورها ، فهي تلعب دوراً مهماً في تكوين الخلق وسلوكه ؛ بل إن الأبحاث العلمية أكدت على أن الصداقة من الممكن أن تغير أخلاقاً نشأ عليها الطفل وربي عليها ، وبنظرة سريعة على كثيرٍ من ألوان الانحرافات ، والسلوكيات الشاذة نجد أنها في النهاية تعود للرفقة السيئة (١).

يقول بعض الفضلاء : " إذا خالطت فخالط حسن الخلق فإنه لا يدعو إلا إلى خير . وصاحبه منه في راحة ، ولا تخالط سيئ الخلق فإنه لا يدعو إلا إلى خير وصاحبه منه في تعب "(٢) .

وأبلغ النصوص الإسلامية في مجال الصداقة والتي تؤكد أثرها الخطير على المستقبل الأبدي للإنسان في سعادته أو شقائه قوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾ ﴾ (٣) .

(٥) الفنون ووسائل الإعلام : تعكس الفنون ، ووسائل الإعلام أثراً كبيراً في نفوس أفراد المجتمع وبخاصة بعد أن تطورت واتسع مدى عملها

(١) انظر : المصدر السابق صـ ٢٦ : ٢٨ .
(٢) انظر : المصدر السابق صـ ٢٨ .
(٣) سورة الفرقان الآيات (٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩) .

نتيجة استخدامها للوسائل العلمية الحديثة ، ولهذا نجد الحكومات وأصحاب الدعوات يتخذون من الفنون ووسائل الإعلام أداة لنشر مبادئهم وترسيخها في كيان المجتمع كما تظهر لنا بوضوح في جذب التليفزيون للمشاهدين عموماً ، وللأطفال خصوصاً ، وتأثيره في سلوكهم ، وأخلاقهم .

والحق أن الفن والإعلام سلاحان يمكن أن يستخدما في الخير و الشر وهذا يؤكد المسئولية الملقاة على عاتق المسئولين عنهما ، والممارسين لهما ويفرض على العاقل أن يرعى سمعه وبصره فلا يرى إلا الطيب ولا يسمع إلا الحسن فإنه مسئول عما يدخل إلى حواسه باختياره ، فإن كان خيراً انتفع به وأثيب عليه وإن كان سيئاً ضره ، وعوقب عليه .

يقول الله تعالى :

﴿...إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[1].

وقوله : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ... ﴿٣٠﴾ ﴾[2] .

وقوله : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ... ﴿٣١﴾ ﴾[3] .

ولشدة خطورة الفن والإعلام على الأطفال بالذات ينبغي للقوامين على الأسر أن ينتقوا لأطفالهم ما يرون وما يسمعون . فما حبب إلى الفضيلة دفعوهم إليه وما دعا إلى الرذيلة نفروهم منه[4] .

---

(١) سورة الإسراء من الآية (٣٦) .

(٢) سورة النور من الآية (٣٠) .

(٣) سورة النور من الآية (٣١) .

(٤) مباحث في علم الأخلاق صـ ٢٨ ، ٢٩ .

(٦) العادات والتقاليد الاجتماعية : بعد أن يعي الطفل يجد نفسه ملزمًا أن يراعي في حركاته وسكناته كثيرًا من العادات ، والتقاليد التي يفرضها المجتمع على أفراده .

وهذا يساعده على التحلي ببعض الأخلاق التي ترضي المجتمع والتخلي عن الأخلاق التي لا ترضيه .

والعادات والتقاليد ليست حسنة كلها بل منها الحسن ومنها السيئ ولهذا اختلف موقف الأفراد منها .

فجماعة ترتفع فوقها وتحاول تغيير الحسن الذي يمكن تغييره إلى ما هو أحسن والسيئ إلى الحسن ، أو الأحسن ولا يهدأ لها بال حتى تتحقق لهم هذه الغاية وهؤلاء هم العباقرة والمصلحون .

وجماعة ثانية : تنحط دونها فلا ترعى لها حرمة ولا تعترف لها بوجود هؤلاء هم المجرمون .

وطائفة ثالثة : تقف في مستواها فتتمسك بالعادات والتقاليد في كل حركاتها وسكناتها وهؤلاء هم العاديون .

موقف العاقل من البيئة الاجتماعية : المطلوب من كل عاقل أن يقف من جميع مظاهر بيئته الاجتماعية موقف الناقد البصير فما وجد فيها من خيرات تحلى بها وعمل على تغييرها إلى الأفضل : دون أن يهمه رضى الناس أم سخطوا وهذا هو ما يحث عليه الإسلام كما أنه موقف الأنبياء المكرمين [1] :

---

(١) نفس المصدر صـ ٢٩ ، ٣٠ .

قال تعالى :

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1] .

قال تعالى :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[2] .

(١) سورة آل عمران الآية (١٠٤) .
(٢) سورة الزخرف الآيات (٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤) .

المبحث الثاني : الضمير

من بين المباحث التي تدرس في علم الأخلاق ويوليها العلماء اهتماماً كبيراً " مبحث الضمير " ويرجع ذلك إلى أن " للضمير أهمية كبرى عند علماء الأخلاق والسلوك في الواقع العلمي والشعور الداخلي[(1)] .

تعريف الضمير في اللغة :

الضمير في اللغة السر داخل الخاطر يقال أضمره أي أخفاه والجمع ضمائر [(2)] .

أما في الاصطلاح : فقد عرف بأنه تلك القوة الروحية الخفية التي يشعر بها الإنسان في نفسه ، تحثه على فعل الخير وتحسنه له وتشجعه عليه ، وتبعث فيه الطمأنينة والسرور عند فعل كل حسن وتهون عليه الصعاب في سبيل الوصل إلى الحق ، كما أنها تقبح له القبيح وتوبخه عليها [(3)] .

كما عرف بأنه " قوة ذاتية في الإنسان ، تأمره بالخير وتنهاه عن الشر ، تثيبه إن أطاعها ، وتعاقبه إن عصاها " [(4)] .

والمتأمل في هذا التعريف والذي قبله يستطيع أن يدرك بأنه الضمير قوة روحية خفية تسكن داخل المرء تشجعه على الخير ، وتبعث فيه الطمأنينة والأمن والسرور عند فعل كل حسن ، كما أنها في نفس الوقت تبعث له القلق والحيرة عند فعل كل قبيح .

---

(١) انظر : دراسات في العقيدة الإسلامية والأخلاق . تأليف لجنة من قسم العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر . صـــ ٢٧٤ . مطبعة جامعة الأزهر ط ١ / ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م .

(٢) انظر : القاموس المحيط . باب الراء فصل الضاد . صـــ ٥٥١ .

(٣) انظر : دراسات في العقيدة الإسلامية والأخلاق . تأليف لجنة من قسم العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر . صـــ ٢٧٥ . مطبعة جامعة الأزهر ط ١ / ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م .

(٤) انظر : دراسات في علم الأخلاق . د . محمود زقزوق . صـــ ٥٥ . ط / ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م .

وظيفة الضمير :

باستقراء تعريف الضمير يستطيع المرء أن يقف على وظيفة الضمير فهو بمثابة قانون أو معيار يقف دافعاً للإنسان وحائلاً له ، دافعاً له إلى الخير ، وحائلاً بينه وبين الشر ، فالضمير له وظائف عدة فهو من البداية يوضح للإنسان الطريق الذي يتحتم عليه أن يسلكه والطريق الذي يتحتم عليه أن يتجنبه ، ثم بعد ذلك يصدر الحكم على الإنسان إن كان مطيعاً يستحق الثواب ، أو عاصياً يستوجب العقاب ، ثم بعد ذلك يتولى هو تنفيذ ذلك الحكم ، فيسبغ على من أطاعه حلل السعادة والراحة والطمأنينة والاستقرار ، ويذيق من عصى أوامره وتوجيهاته سوط عذاب من التعاسة والشقاء والندم ، فوظيفة الضمير تظهر في نواحي ثلاث .

أولاً : قبل أن يقدم الإنسان على العمل .

ثانياً : في أثناء قيامه به . ثالثاً : بعد إتمام العمل .

ولذلك نستطيع أن نقول إن الضمير يشتمل على السلطات الثلاث الشهيرة :

١ – السلطة التشريعية : ومعنى هذا أن الضمير يحث الإنسان على أن يقيم التشريع على أساس من الشرع ، وأيضاً في التنفيذ والحكم على الأشياء .

٢ – السلطة التنفيذية .

٣ – السلطة القضائية .

وفي كل ذلك يركز الضمير في حثه على التنفيذ والحكم على أساس من هدى الكتاب الكريم والسنة المطهرة (١) .

---

(١) انظر : في الأخلاق الإسلامية والإنسانية . د . علي معبد صـ ١٤ ، ١٥ .

وقصارى القول في هذا : إن الضمير يجمع بين السلطات الثلاث " فهو مشرع لأنه يبين الخير من الشر ويلزم بفعل الأول وباجتناب الثاني ، وهو قاض : لأنه يحكم على المحسن بأنه فعل خيراً وأنه يستحق الثواب ، وعلى المسيء بأنه فعل شراً وأنه يستحق العقاب ، وهو منفذ لحكم القضاء : لأنه يجازي فاعل الخير بالارتياح والطمائنينة وفاعل الشر بالتأنيب المر الذي يحز النفس حتى يسلمه للندم والتوبة [1] .

ماهية الضمير :

اتفق جمهور الأخلاق على إثبات الضمير داخل الإنسان كما اتفقوا على أنه بمثابة حاكم يجمع بين السلطة التشريعية ، والقضائية ، والتنفيذية ، إلا أنهم اختلفوا حول ماهيته . هل الضمير فطري ؟ بمعنى أن الإنسان يولد مزوداً به أم أنه مكتسب . يكتسبه المرء بالممارسة وحسن التربية . وانقسم العلماء حيال هذه المسألة إلى ما يلي :

الفريق الأول :

ويذهب أنصاره بفطرية الضمير وهؤلاء يطلق عليهم (أصحاب مذهب الحاسة الأخلاقية) يقولون في تفسير الضمير إن الإنسان يولد مزوداً بحاسة خلقية تميز بطبيعتها بين الخير والشر دون أن تحتاج إلى التفكير والنظر .

وكما تدرك العين الموجودات والأذن المسموعات والأنف الروائح تدرك هذه الحاسة السادسة الخيرات والشرور .

---

(١) انظر : مباحث في علم الأخلاق . د . قنديل محمد قنديل . صـــ ٧٨ ، ٧٩ . دار الطباعة المحمدية ط ١ / ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م .

ولا تكتفي بالإدراك بل أنه تدفع الإنسان إلى حب الخير للخير ، وكره الشر لأنه شر وإن لم يترتب على ذلك ثواب مادي أو عقاب ، ويحدث منها ذلك سواء أكان الإنسان وحيداً أم مخالطاً للناس .

وهذه الحاسة الأخلاقية تضعف بالإهمال وتقوى بالمران ، وتنمو في جو التربية الحسنة وتذبل في البيئة الفاسدة .

ولهذا يختلف الناس في الأحكام الأخلاقية ولو تركوا هذه الحاسة على فطرتها لا تقفوا في أحكامهم جميعاً .

ومن الأدلة على وجود هذه الحاسة لدى الإنسان أن الأطفال الأبرياء ينفرون من مشاهد الظلم والجشع والأنانية ويسرون عند مشاهدة العدل والصدق والرحمة [1] .

والواقع أن هذا الرأي مع وجاهته إلا أنه يؤخذ عليه ما يلي :

١ – إن حاسة الضمير لا تضمن الصواب في أحكامه كما هو شأن سائر الحواس ، وفوق ذلك فإنه يترتب عليها اختلاف الحكم على أعمال الناس باختلاف احساساتهم فيكون الخير عند بعضهم شراً عند الآخرين وبالعكس . وقد وقع ذلك كثيراً في تاريخ البشرية ، ومثاله إقرار ضمير المجتمع العربي في الجاهلية لوأد البنات وحسبانه داخلاً في الخيرات بينما أعده الإسلام بعد مجيئه من أقبح الجرائم [2] .

٢ – ويترتب على هذا الرأي أنه لا حاجة إلى التعليم أو التربية ، لأن القوة المهذبة المؤدبة موجودة في ذاتية الإنسان توجهه إلى الخير وتمنعه عن الشر [3].

---

(١) انظر : مباحث علم الأخلاق . د . قنديل محمد قنديل . صـــ ٧٩ .

(٢) انظر : دراسات في علم الأخلاق . د . جابر قتوح . صـــ ٩٣ ، ٩٤ .

(٣) انظر : في الأخلاق الإسلامية والإنسانية . د . على معبد صـــ ١٦ .

الفريق الثاني :

وهو مذهب التجريبيين : ويرى أصحابه أن الضمير الخلقي ليس فطرياً ولا عاماً لدى الناس جميعاً وإنما هو أمر مكتسب استفاد الإنسان من البيئة التي يحيا فيها ومن التجارب التي مر بها ، وهذا المذهب هو مذهب " ستيورت مل " الذي ينكر فطرية الضمير ويقرر كسبيته بمعنى أن قوة من قوى الشعور اكتسبها الإنسان واستفاده من المران والتجربة وعلى نحو من التدرج ومن أجل ذلك كان الضمير في نظر أصحاب هذا المذهب متفاوتاً بتفاوت الأفراد والجماعات مختلفاً في أمة أو بيئة عنه في أمة أو بيئة أخرى .

إن المرء في نظرهم وليد مجتمعه وكل مجتمع له عرفه المعين وتقاليده المرعية ونظمه المتفق عليها [١] .

وقد انتقد هذا المذهب بأن الضمير لو كان كسبياً لوقع اختلاف الناس في تقييم الفضائل والرذائل باختلاف العصور والأمم بل وباختلاف البيئات كما تختلف تقاليدهم وقوانينهم وهذا مخالف للواقع ، فإننا نرى الناس متفقين على المبادئ الأخلاقية في مختلف الأزمان ومتعدد العصور . مهما كان هناك من بعض وجوه التفاوت في مسائل جزئية لا تؤثر على أصول الأخلاق المقررة وقاعدة السلوك العامة .

وهذه المبادئ العامة التي يتفق عليها الناس جميعاً هي معتمد المشرعين والمصلحين وهي كذلك الأساس في احترام هذه القوانين ووجب طاعتها من الناس جميعاً [٢] .

---

(١) انظر : دراسات في علم الأخلاق . د . جابر قميحة . صـ ٩٣ .

(٢) انظر : العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع صـ ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

الفريق الثالث :

مذهب العقليين : ويرون أن الضمير الإنساني ليس حاسة وإنما هو العقل الإنساني الذي يقدر الأفعال ويحكم عليها بالخير أو الشر ، وهو يوجد لدى الناس جميعاً ولا يحتاج في عمله إلى الخبرة والتجارب .

فأي إنسان عامي أو متعلم ، صبي بالغ أو شاب أو شيخ ، يريد أن يعرف الخير والشر في الأفعال عليه أن يستعمل هذا العقل العام بشرط أن يجرد نفسه من أسر الشهوات والعواطف وظواهر البيئة التي تجعل الحاكم يخضع للأوهام .

ويقدم لنا الإمام ابن القيم تحليلاً بديعاً للضمير العقلي فيقرر أن العقل الإنساني ينقسم إلى نوعين :

(أ) عقل علمي محض يختص بمعرفة الحق والباطل والتمييز بينهما .

(ب) عقل عملي يختص فيما ينبغي أن يكون عليه السلوك وفيه قوتان قوة عملية تعرف الخيرات والشرور وبها يكون الإنسان عالماً بالأخلاق ، وقوة تدفع الإنسان إلى فعل الخير واجتناب الشر [1] .

والرأي الثالث كان قبوله للنقد أقل من المذهبين السابقين ذلك أن الضمير وإن وجد عند الناس جميعاً كما يقول – إلا أنه لم يكن فيهم بمثابة واحدة أو قدر متكافئ – ومن هنا جاء الحكم الأخلاقي على بعض الأفعال مختلفاً عن حكم أجدادنا الأولين مثلاً : وهذا دليل على أن للتجربة دخلها في تكوين الضمير .

---

(١) انظر : مباحث في علم الأخلاق . د . قنديل محمد قنديل . صـ ٨٠ ، ٨١ .

والرأي المختار الذي يأخذ من كل الآراء المتقدمة هو الرأي القائل بأن الضمير قوة فطرية في كل إنسان باعتبار أصلها وإن كان للتربية العقلية والأدبية دخل في نموها وتحقيق كمالها .

ولعل هذا ما أراده الإمام عندما سماه الغزالي أولاً (نور الهيا) مما يمكن تفسيره بأنه قوة فطرية – ثانياً (معرفة) مما يبيح القول بأنه قابل للتأثر في نموه . وكمال حقيقته بعوامل التربية [1] .

الرأي الصواب في الضمير على ضوء الكتاب والسنة :

الحق أن في كل واحد من هذه المذاهب الثلاثة جانباً من الحق وجانباً من الباطل فالضمير كيان يجمع العناصر الفطرة الوجدانية التي تجعل الإنسان يحب الخير وينفر من الشر ، والعقل الذي يدركهما والتجارب الإنسانية التي تمحص إدراك العقل وتهذب شطحات الفطرة .

ويضاف إلى ذلك العنصر الديني الذي يهدي الضمير إلى الحق فيما أشتبه عليه من الخيرات والشرور ، ويؤكد للإنسان أنه لا بد من مراعاة الله ومراقبته .

وبهذه العناصر يتحقق للإنسان ما أطلق عليه القرآن اسم البصيرة في قوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱلۡإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴾ [2] .

وهذه البصيرة هي وسيلة مراقبة الله تعالى في الخفاء ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾ [3] .

---

(١) راجع : العقيدة والأخلاق . صـ ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٢) سورة القيامة الآية (١٤) .

(٣) سورة الملك الآية (١٢) .

وهي التي تدفع الإنسان إلى إحسان العمل وكأنه يرى الله سبحانه وتعالى ، عَنْ أَبِى زُرْعَةَ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) كَانَ يَوْماً بَارِزاً لِلنَّاسِ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِى فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الإِيمَانُ قَالَ ... ، قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الإِحْسَانُ قَالَ « الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » [1] .

كما أنها تنبه العاقل حينما تهجم عليه الشهوات إلى أن يجاهدها وينتصر عليها لأن الله مطلع عليه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١ ﴾ [2] .

وهي اللوامة التي تلوم الإنسان على ترك الخير وفعل الشر : ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾ [3] .

وهي المطمئنة التي تطمئن إلى فعل الخيرات واجتناب الشرور : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ ﴾ [4] .

درجات الضمير

الناس متفاوتون في الذكاء والعقول . فبعض الناس أذكياء عقلاء ، وبعضهم عقلاء أذكياء ، والذكاء على درجات . فهناك من هم على القمة يدركون المعاني كما تدرك العين السليمة الألوان في ضوء الشمس ، وهناك

---

(١) رواه البخاري . كتاب الإيمان . باب سؤال جبريل للنبي عن الإيمان والإسلام . جـ ١ صـ ٨٩ حديث رقم ٤٩ . شركة دار الأرقم .بيروت .

(٢) سورة الأعراف الآية (٢٠١) .

(٣) سورة القيامة الآية (٢) .

(٤) سورة الفجر الآيتان (٢٧ ، ٢٨) .

من هم على الضد كمثل أولئك الذين يحاولون التعرف على الألوان في ليلة حالكة الظلام .

وهناك من هم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومثلهم مثل من يحاول التعرف على الألوان تحت السحاب المتراكم . بعد ذلك نقول : هل الناس متفاوتون في درجات ضمائرهم ؟

والجواب : نعم . فهناك أقوام فقدوا النوازع بل وانقلبت عندهم الصورة فهم يحتقرون الناس ، ويعتدون على حرياتهم وعلى حرماتهم لا يستريحون إلا إذا ظلموا ، ولا تهدأ نفوسهم إلا إذا قهروا يروعون الآمن ولا يرحمون صغير هؤلاء هم الذين ماتت ضمائرهم [1] .

وهؤلاء عبر عنهم القرآن في قوله تعالى : ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾ [2].

وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [3] .

---

(١) انظر : دراسات في علم الأخلاق . د . جابر فتوح . ص ٩٦ . ط / ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢م .

(٢) سورة يوسف الآية (٥٣) .

(٣) سورة الأعراف الآية (١٧٩) .

وفي هذه الآية اعتبرهم القرآن في درجة أحط من الحيوانات ثم وصفهم بقوله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (1) .

ولقد وصفتهم السنة النبوية الشريفة نفس الوصف فقد روى أن رجلاً سطا على غنم قبيلة بني أسد فقتله كلب القوم فقال – عليه الصلاة والسلام – عنه (قتل نفسه وأضاع دمه وكان الكلب خيراً منه) .

ولكن هل يولد هؤلاء قساة القلوب غلاظ الأكباد ؟ أم أن البيئة المحيطة بهم هي التي تجعلهم كذلك ؟

إن القرآن الكريم يقول : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (2) .

فالبيئة هي التي تعلي شأن الضمير أو تحقر من شأنه . من أجل هذا . نرى الإسلام يأمرنا بإحاطة النشء بكل ما من شأنه أن يربي ضمائرهم على الخير .فهو يأمرنا بالصدق . وجعل للصادقين الجزاء العظيم ثواب صدقهم فقال : ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ... ﴾ (3) .

ويجب أن نعودهم على أداء الأمانة ونعلمهم أن الله أمرنا بذلك فقال : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا... ﴾ (4).

---

(1) سورة الأنفال الآية (٢٢) .

(2) سورة النحل الآية (٧٨) .

(3) سورة الأحزاب الآية (٢٤) .

(4) سورة النساء الآية (٥٨) .

وفعلهم العدل وأن لا نظلم أحد ولا نعتدي على أحد فقال سبحانه وتعالى : ﴿ ... وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (١) ويجب أن نعودهم على الصفح والإصلاح بين المتخاصمين لأن الله يأمرنا بذلك في كتابه الكريم حيث يقول : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ (٢) .

ولقد طبق الرسول والصحابة كل تعاليم الإسلام ، فخلقوا بذلك بيئة ربت الضمائر على الخير ، وعلى الخوف من الله تبارك وتعالى فهذا هو ماعز والغامدية اقترافاً الزنا فجاء ماعز واعترف للرسول ، والرسول بعد الإقرارات الأربعة أقام عليه الحد ، وكذلك الغامدية بعد الحمل والولادة وفطام الطفل ، أقام الرسول (ﷺ) الحد عليها ، وذلك لعلمهما بأنهما سوف يعرضان على الله تعالى فكان الضمير الذي أيقظ فيهم الاعتراف بالذنب حتى يقابلا الله تعالى طاهرين مطهرين .

ونجد في الطرف المقابل من أصحاب الضمير الميت الذين يقتلون ويسرقون ويزنون وكأنهم لا يعرفون الله ولا يخافون من حساب وعقاب . وهناك نوع آخر من الضمير الحي في القمة يدعو صاحبه إلى كل خير وافق

---

(١) سورة النساء الآية (٥٨) .

(٢) سورة الحجرات الآية (٩) .

القانون والشرع والعرف أو لم يوافقهما إنه ضمير الأنبياء والمصلحين الذين يدعون إلى الحق ويتحملون في ذلك التعذيب أو القتل ولعل أصدق مثل على هذا قول الرسول (ﷺ) لعمه أبي طالب " والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه " [١].

ويوضح لنا صاحب كتاب مباحث في فلسفة أخلاق درجات الضمير بصورة أوضح واشمل وأدق فيقول : للضمير ثلاث درجات :

الأولى : ضمير يعمل الواجب خوفاً من الناس فهو يرى خيراً ما يرونه خيراً وشراً ما يرونه شراً لا يصدر صاحبه في أعماله عن رأي نفسه بل نراه دائماً مدفوعاً بغيره ، هذا الجندي مثلاً يصمد للحرب ويصبر عليها ولا يفر حتى لا يقال عنه أنه جبان . وهذا الرجل يصلي أو يصدق في حديثه لأنه يرفض أن يرى فيه الناس رجلاً رقيق الدين كذاباً ، وأهل هذه الدرجة الدنيا لا يتورعون عن شر إذا خلو بأنفسهم وأمنوا الرقيب ، أو عاشوا في بيئة سيئة لا ترى الشر أمراً منكراً .

الثانية : وهي أحسن حالاً من سابقتها ضمير يرى الخير فيما أمر به القانون والشر فيما حظره فهو يطيع القانون أياً كان مصدره ولا يسمح لنفسه بمخالفته وإن أمن رجل الشرطة وسلطان النيابة صاحب هذا الضمير يعد من الأخيار . لأنه لا يسرق ولا يقتل ولا يخون ولا يأتي منكراً حظره القانون الوضعي أو السماوي أو الأخلاقي وإن أمن العقوبة ، ذلك بأن ضميره يأمره باتباع القانون وعدم مخالفته في السر والعلانية .

---

(١) انظر : دراسات في علم الأخلاق د . جابر فتوح صـ ٩٨ ، ١٠٠.

الثالثة : وهي الدرجة العليا – ضمير يحتم على صاحبه عمل ما يراه في نفسه خيراً . خالف ما تواضع عليه الناس وما أمر به القانون أو وافقه . يشعر بأن هذا العمل خيراً لأنه يراه خيراً . لا لأن القانون أمر به . ويرى أن ذلك شر لأنه يراه في نفسه شراً لا لأن العرف أو القانون نهى عنه فهو ينفذ بصره وراء القواعد المتعارفة والقوانين السنوية ليعرف أساس الحق والباطل والخير والشر فإن هدى إلى الخير عمل به وإن خالف رأي الناس جميعاً مهما كلفه من مشاق وأرهقه من الآم .

وهذه الدرجة لا يصل إليها إلا الرسل والأنبياء وكبار المصلحين الذين يصدعون بما عرفوا أنه الحق ولا يخافون لومة لائم تلك الدرجات الثلاث يسلم بعضها بالتربية إلى بعض وفي مقدور من كان في درجته أن يصل إلى فوقها بتهذيب ضميره وتكميله [1] .

عوامل انحراف الضمير :

على الرغم من أن الضمير يبدو وكأنه صوت إلهام إلهي في كيان الإنسان فإنه غير معصوم ، وكثيراً ما ينحرف عن جادة الحق والصواب . نتيجة لعدة عوامل تؤثر فيه :

١ – البيئة التي يعيش فيها الإنسان :

ففي قرى الصعيد عندما يتمسك الناس بعادة الثأر ، وينشأ الأطفال على حب هذه العادة ، فإذا كبرت ضمائرهم على حب هذه العادة الظالمة الممقوتة ، ولذا نرى ضمير القاتل لا يتزعج أبداً إذا ارتكب جريمة القتل انتقاماً لقتل قريبه ، بل ربما لا يستريح ضميره إلا إذا ارتكب هذه الجريمة .

---

(١) راجع : مباحث في فلسفة الأخلاق صـ ١٤٦ .

٢ – العواطف والانفعالات :

فالمشاعر غير الواعية كثيراً ما تغمض العين عن الحق والعدل معاً : وذلك كالأم التي يدفعها حنانها وشفقتها على ولدها أن تعطيه طعاماً منعه عنه الطبيب . وبذلك تؤذى صحته وتزيد علته وتعطل شفاؤه ، وكالأخت التي تعطي لأخيها مالاً مع علمها بأنه ينفقه في المفاسد .

٣ – العادات السيئة :

فالمرء إذا تعود على أمر وهو فعل شيء قبيح فإن ضميره ينام على ذلك الأمر وكأنه أنس إليه أو رضى به يفقد حساسيته بالنسبة إليه ، كالشخص الذي اعتاد التدخين أو شرب الخمر أو الغيبة [1] .

ومن المعلوم أن الضمير يقوي ويضعف بحسب ما يمارسه من أعمال حسنة كانت أو سيئة .

قال تعالى :

﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [2] .

٤ – المصلحة الشخصية :

فكثير من الناس يجرون وراء ما يحقق لهم منافع خاصة ، أو المصلحة الشخصية وإذا حاول الضمير أن يرفع صوته فسرعان ما يسكته صاحبه بالحجج والمسوغات الباطلة ، ذلك كأمين المخزن الذي يختلس من عهدته ثم يزور في الكشوف الخاصة بالمخزن متعللاً بأن المخزن مليء بالخيرات ، وأن ما

---

(١) انظر : في الأخلاق الإسلامية د . على معبد صـ ١٨ ، مباحث في علم الأخلاق د . قنديل محمد قنديل صـ ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) سورة المطففين الآية (١٤) .

يأخذه لن ينقصه شيئاً وأن الدولة غنية ، وإلى أخر العلل التي تستعمل كمسكن للضمير [1] .

٥ - الجهل :

من بين العوامل التي تساعد على ضعف الضمير الجهل وقلة الإدراك ، فالجاهل ينظر إلى الأمور في الغالب نظرة غير مستقيمة فيرى الحق باطلاً ، والباطل حقاً .

" ولهذا نرى الأطفال يعذبون الحيوانات ظانين أنهم يداعبونها وهم لايفعلون ذلك عن قسوة قلب بل عن جهل وقلة إدراك" [2] .

لهذا نجد آيات القرآن صريحة جلية في الدعوة إلى العلم ..

قال تعالى :

﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ... ﴾ [3].

وقال تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [4] .

وقال تعالى :

﴿ ... قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ... ﴾ [5].

---

(١) في الأخلاق الإسلامية ص ١٩ .

(٢) مباحث في علم الأخلاق . د . قنديل محمد قنديل ص ٨٥ .

(٣) سورة فاطر من الآية (٢٨).

(٤) سورة الكهف الآيتان (١٠٣ ، ١٠٤) .

(٥) سورة الزمر من الآية (٩) .

هذه هي أهم عوامل انحراف الضمير وللتغلب عليها يجب نشر العلم وتعميم نوره الذي يضئ الطريق فيقضي على الظلام الذي تعيش فيه كثير من البيئات متقوقعة داخل عاداتها وأعرافها الظالمة وينمي عند الناس المشاعر الواعية والانفعالات اليقظة ويقضي على العادات السيئة ويغرس في الناس الشعور الجماعي بحيث لا يضحي فرد بمصلحة الكل في سبيل مصلحته هو ، وعندما ينتشر العلم تتقدم مواكب الخير والحق والجمال وتختنق أشباح الشر والظلم وكل ما هو قبيح من المجتمعات البشرية .

عوامل تقوية الضمير :

باستقراء عوامل ضعف الضمير يستطيع المرء أن يدرك عوامل تقويته والتي تأتي على النحو التالي :

١ - إصلاح البيئة :

لما هو معروف من أن الإنسان مخلوق اجتماعي يؤثر ويتأثر ببيئته صالحة كانت أو فاسدة .

٢ - السيطرة على العواطف والانفعالات .

٣ - استبدال العادات السيئة بعادات حسنة .

٤ - زيادة الحرص على طلب العلم .

٥ - البعد عن الأنانية . وضبط المصلحة الشخصية .

هذا بالإضافة إلى عدة عوامل أخر وهي :

٦ - الوعظ والإرشاد :

فمن خلال الترغيب في الخير والتحذير من الشر ، فهذه الوسيلة من أفضل الوسائل لا سيما أمام الأطفال .

٧ – القدوة الصالحة :

فالمرء هو المثل الأعلى ولذا نجد أن أخلاق المرء منا في الغالب تأتي على غرار أخلاق والده ومربيه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، لأن الأخلاق تسرق من الأخلاق كما يقولون ، والطباع تتأثر بالطباع [(1)] .

٨ – مرافقة الأخيار والصالحين :

فمجالسة الصالحين لها أثر طيب في النفس . ولهذا جاءت دعوة القرآن صريحة بضرورة اختيار الصالح من الناس حتى لا يندم في يوم لا ينفع الندم فيه .

قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾ ﴾[(2)].

هذه هي أهم العوامل التي تساعد على تقوية الضمير وتنقيته .

بين الضمير والوجدان

يرى بعض الباحثين في " الأخلاق " : أن الضمير مرادف للوجدان ويرى آخرون أن الوجدان هو تعرف النفس حالاتها ، أو شعورها باللذة والألم يعقبان الأفعال .

---

(١) دراسات في الأخلاق . د . طه خضير ص ٤٥ / ١٤٠٣هـ – ١٩٨٢ م .

(٢) سورة الفرقان الآيات (٢٧ : ٢٩) .

أما الضمير : فهو القوة التي عرفنا الكثير من خصائصها ، ومنها الحكم بأن هذا العمل الذي أتاه المرء خير فيتلذذ لذلك ويسرّ . أو شر فيتألم ويندم .

إذاً : فالفرق بينهما : هو أن التلذذ والتألم من ذاتية الوجدان بينما من لوازم الضمير وآثاره .

ويتحدث الدكتور محمد يوسف موسى في هذا الشأن قائلاً : " والحق في رأيي هو أن بين الوجدان والضمير فرقاً كبيراً . الأول : هو مشاهدة النفس لما يجري فيها وتعرف حالها وإحساسها بما يكون من لذة وألم " .

أما الضمير : فهو سيد ذلك كله يقدر الفعل . ويحكم عليه بقياسه بما يرى من مثل أعلى . وقد جاء لفظ القلب في معنى قريب من الوجدان إن لم يكن كما جاء بمعنى العقل أو الضمير :

من الأول :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ... ﴾ [1] .

وقوله : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ ﴾ [2].

وقوله : ﴿ ... سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ... ﴾ [3] .

(١) سورة الزمر الآية (٤٥) .

(٢) سورة النازعات الآية (٨) .

(٣) سورة الأنفال الآية (١٢) .

ومن الاستعمال بالمعنى الثاني :

قوله تعالى : ﴿ ... لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ... ﴾ [1] .

وقوله : ﴿ ... فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [2] .

ويلعب الضمير دوراً مهماً في حياتنا ، فهو ناصح حكيم ، وقاض عادل ومنقذ أمين . ينصح أول الأمر بالخير ، ويحث عليه ، وبالبعد عن الشر ويثبط عنه ، وبعد الفعل يحكم لنا بالخيرية والفضيلة ، أو علينا بالشرية أو الرذيلة ، وينفذ خير المثوبة ممثلة في ارتياح النفس وطمأنينتها ، أو العقوبة بالتأنيب المرّ الذي يحزّ في القلب حزّاً ، ويسلم للندم والتوبة .

وهذا الدور المهم : أنطق " دان جاك روسو " بهذه المقطوعة من الشعر المنثور في وصفه ، وكان يعتقد أنه قوة من نور الله تبارك وتعالى ، يقول : أيها الضمير . أيتها القوة الفطرية الخالدة ، أيها الصوت السماوي ، أيها القائد الأمين للإنسان الجاهل المحدد ، وإن كان ذكياً حراً في إرادته ، أيها القاضي الذي لا يعتل من تمييز الخير من الشر . والذي جعل الإنسان شبيهاً بالله ، إنه أنت الذي يكون أشرف جزء في طبيعته ، وإنك الفضيلة في أعماله بدون لا أشعر بما يرفعني عن الحيوان . ما عدا الميزة التي تجعلني أضل في ميدان الأخطاء . وهي أداة الفهم التي لا قاعدة لها ، والعقل بدون مبادئ يسير عليها [3] .

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٧٩) .

(٢) سورة الحج الآية (٤٦) .

(٣) انظر : مباحث في فلسفة الأخلاق . د . محمد يوسف موسى ص ــ ١٢٦ .

بين الضمير والعقل

يختلف الضمير عن العقل والفكر اختلافاً واضحاً وبيناً .

فالضمير : يصدر أحكامه بأسلوب مبهم غامض ، دون أن يكون الإنسان متفطناً كل التفطن إلى الأسباب والعوامل والمقدمات التي أدت إلى هذه الأحكام فكأن أحكام الضمير إلهام من الله .

أما العقل : فيصدر أحكامه بناءً على دراسة الأسباب والعلل ، وبحث الوسائل والمقدمات ، فالأحكام العقلية إنما تقوم بناء على مقدمات فكرية ، وأدلة منطقية ، وحساب دقيق للأسباب والعلل .

ويتضح الفرق بين الضمير والعقل عندما يتعارضان في أحكامهما . فكثيراً ما يفكر المرء في أمر من الأمور ، ويدرسه دراسة وافية ، ثم يصدر العقل حكمه بناءً على هذه الدراسة الواعية . ولكن وفي نفس الوقت يحس الإنسان شعوراً داخلياً بعدم الاطمئنان إلى حكم العقل هذا ، ويجد نفسه غير مستريح أو واثق بهذا الحكم ، وهذا الشعور الداخلي المبهم هو صوت الضمير [1] .

(١) انظر : دراسات في علم الأخلاق . أ . د . محمود محمد مزروعة صـ ٥٨ – ٥٩ .

الفصل الرابع

من تاريخ البحث الخلقي

المبحث الأول : الأخلاق عند الشرقيين القدماء

تمهيد :

في دراستنا للجانب الأخلاقي عند الأمم الشرقية القديمة سنعرض له من خلال نظرهم للنفس الإنسانية واهتمامهم بها .

وقد أثرنا دراسة الجانب الأخلاقي لهذه الأمم من خلال دراستهم للنفس الإنسانية لما هو معلوم أن معرفة النفس أساس لأي معرفة أخرى ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فالعلاقة بين علمي النفس والأخلاق علاقة وثيقة ، بل إن هناك من العلماء من أكد على أن الوقوف على الجانب الخلقي لدى أمةٍ ما يكون من خلال معرفة موقفهم من النفس حيث إنها مقدمة ضرورية لدراسة الأخلاق [1]. وسوف يقتصر الحديث على الجانب الخلقي لدى المصريين القدماء .

سبق أن ذكرنا أن النفس من الموضوعات التي لافت اهتمام الباحثين، والمفكرين عبر العصور المختلفة، فأدلي كل واحد فيها بدلوه محاولاً الوقوف عليها وكشف أسرارها.

" والمتتبع لهذا الموضوع يجد فيه تلخيصاً لتاريخ الفلسفة بأسرها ، فالفكر الشرقي القديم يدور في جزئه الأعظم حول النفس في أصلها ووسائل تطهيرها وتهذيبها " [2] .

---

(١) انظر: تهذيب الأخلاق لابن مسكويه عند حديثه عن النفس ، قوى النفس وفضائلها عند مسكويه . د . فتحي الزغبي حولية أصول الدين بالمنصورة العدد ٨ جـ ٢ صـ ٥٣٨ ، ٥٣٩ .دار الإيمان للطباعة .

(٢) انظر: في الفلسفة الإسلامية . د/ إبراهيم مدكور جـ١ صـ١٢٠ -١٢٢.

ومن بين الذين تعرضوا لدراسة النفس المصريون القدماء [١] ، حيث قاموا بدراسة النفس وما يتبعها من الحديث عن طبيعتها وقواها ومصيرها وخلودها وهذا أمر طبيعي لأن مثل هذه الأمور قد شغلت الناس جميعا " الفلاسفة منهم المفكرون والشعراء منهم والأدباء والفنانون والعلماء والناس الذين يوصفون بالمتحضرين ، والناس الذين يعيشون حياة بدائية أو حياة البداوة " [٢] .

ولما كانت النفس هي أساس هلاك البدن أو نجاته فإن المصريين اهتموا بها اهتماماً بالغاً ودرسوها من جوانب متعددة ، فدرسوها من حيث طبيعتها ، وانتهوا إلى أنها ذات طبيعة روحانية حيث إن الإنسان مركب من جوهرين متمايزين هما النفس والروح ، كما بحثوا عن طبيعتها بحثوا عن قواها وآمنوا بخلودها في الدار الآخرة ، ولهذا جاءت تعاليمهم واضحة وصريحة في ضرورة الاهتمام بالنفس والعناية بها فمصيرها في الآخرة مرهون بسابق عملها في العالم الأول ، فقد وجد مسطوراً علي أحد الأحجار " أنا لا أموت مرة ثانية في العالم الآخر " [٣] ، ووجد أيضاً " إنه لغبي ذلك الذي لا يكترث باليوم الأخر "[٤] .

---

(١) هـم أبناء هذه الأمة التي عاشت علي ضفاف نهر النيل عبر قرون عديدة ، ويرى المؤرخون أن هذه الأمة من أعرق الأمـم وأسبقها وجودا تاريخ انظر : الفلسفة في الشرق بول ماسون ترجمة : محمد يوسف موسى صـ ٤٥-٥٠ . دار المعارف و الأديان القديمة. د/ حسن الهواري صـ٣٢ دار الطباعة المحمدية طـ٢ ١٩٩٢م .

(٢) الخلود في التراث الثقافي المصري . د/ سيد عويس صـ١١- الهيئة المصرية العامة للكتاب مهرجان القاهرة للجميع صيف ١٩٩٩م

(٣) الأدب والدين عند قدماء المصريين . أنطوان ذكري صـ ١٠٧ . مطبعة المعارف .طـ١ ١٩٢٣ .

(٤) الحكم والأمثال عند المصريين القدماء . كمال محرم صـ ٧٤ . الهيئة المصرية العامة للكتاب مهرجان القراءة للجميع. صيف ١٩٩٨ .

ولا شك أن هذا الاهتمام جاء نتيجة لاختلاطهم بغيرهم من الشعوب الأخرى ، وما خلفته الرسالات السماوية من أثر باق في نفوسهم ، إضافة إلى هذا طبيعة التربة المصرية علي نحو ما سيتضح فيما بعد .

" وربما كان المصريون القدماء أول من أبرز فكرة العناية بالنفس والاهتمام بها "[1] .

حقا لم ترق أبحاثهم وآراؤهم إلى مكانة البحث الفلسفي إلا أن هذا لا يقلل من شأنهم، ومن قيمة آرائهم لاسيما إذا ما وضعنا في الاعتبار عدة عوامل أهمها ظروف العصر، وطبيعة العقول في ذلك الوقت.

دواعي اهتمام المصريين بالنفس :

سبق أن أشرت إلي أن موضوع النفس من الموضوعات التي فرضت نفسها علي عقول الباحثين والمفكرين عبر العصور المختلفة لدرجة أننا نجد أنه ما خلا عصر من العصور دون أن يتعرض لبحث هذا الموضوع .

ولما كان الأمر علي هذا النحو فإن المصريين القدماء قد درسوا هذه المشكلة واعتنوا بها ، وقبل التعرض لآرائهم في النفس لابد من الإشارة إلى دواعي اهتمامهم بالنفس .

لقد كان المعتقد عند القدماء المصريين أن في الإنسان قوة هي سر وجوده وجوهر حياته وهي التي تدفعه إلى الحركة والقدرة.

وكأي أمة من الأمم بحثوا عن هذه القوة فلما عرفوا أنها النفس أولوها اهتماما بالغا حيث إنهم رأوا أنها جوهر الإنسان كما أنها " مصدر الحياة لكل

---

(1) انظر: موجز تاريخ الفلسفة للصف الثالث الثانوي القسم الأدبي . صـ٦١ الجمهورية العربية اليمنية مطابع وزارة التربية والتعليم صنعاء ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠ م

ما له نفس هذا بالإضافة إلى أنها لا تقع تحت الحس فهي ليست بذي طول ، أو عرض ، أو عمق حتى يمكن إدراكها إدراكا تاما " (١) .

وقد كان اهتمام المصريين بالنفس مشفوعاً بجملة من الدواعي حملتهم علي ذلك:

(أ) اتصالهم بالشعوب الأخرى.

" فمن الثابت تاريخيا وفقاً للنتائج التي وصلت إليها أبحاث العلماء أن جميع دول الشرق القديم كانت علي صلة ببعضها " (٢) .

(ب) إرسال الرسل .

ففي المنظور الإسلامي نجد أن المصريين القدماء جماعة من البشر غمرت الأرض فترة من فترات الزمن وكأي أمة من الأمم أرسل الله إليها من يقودها إلى أمر رشدها ، قال تعالى :

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ) (٣) . وقـــــوله : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) (٤) .

ولقد أكد العلماء أن المصريين الأوائل كانوا علي عقائد قديمة تدعو إلى التوحيد الإلهي .

يقول هيرودوت : " إن المصريين كانوا أول الموحدين في العالم وأن بقية العالم أخذ الدين عنهم " (٥) .

---

(١) نماذج من فلاسفة الإسلاميين . د/ سامي نصر لطف. حـ ١ حكماء المشرق . صـ٨٨ طـ٢ . ١٩٨٣م .

(٢) دراسات في تاريخ الشرق القديم . د/ أحمد فخري جـ١ صـ٢٥-٢٦ الإنجلو المصرية سنة ١٩٨٤ .

(٣) سورة فاطر آيه (٢٤) .

(٤) سورة الإسراء آية (١٥) .

(٥) الله - د/ مصطفي محمود صـ٤٩ . دار المعارف طـ٤.

ومما لا شك فيه أن هذا التوحيد اقتبسوه من الأنبياء الذين أرسلهم الله مع تطور الزمن " كنوح ، وسام بن نوح ، وقبل ذلك نبي المصريين الأوحد إدريس عليه السلام الذي ولد بادفو وقيل بمنف وقد أمرهم إدريس بعبادة الله والإعراض عن الدنيا مبينا لهم أن حياة النفس في الحكمة وموتها في الجهل " [١].

والي جوار هذا دخلها إبراهيم ، ويوسف (عليه السلام) وقد أكد هذا القرآن على لسان يوسف وهو في السجن بقوله تعالي : (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) [٢] .

ويعلق سيد قطب قائلاً :-

" وفي ذلك دليل علي أن الإيمان بالآخرة وما تتضمنه من حساب للنفس وغيره كان عنصراً أصيلاً في الرسالات السماوية " [٣] .

(جـ) طبيعة الموضوع نفسه .

فموضوع النفس من الموضوعات التي أحيطت بحجاب كثيف ونظام خاص دعا المفكرين إلى البحث عنها ، كما أنها امتازت بميزة أخري وهي : " تميز الكائنات الحية عن غيرها "[٤] .

([١]) الدين والفلسفة والعلم . محمد أبو الفيض المنوفي صـ ٥٨ ، ٥٩ . دار الكتب الحديثة ، وانظر : البداية والنهاية . لابن كثير جـ١ صـ٩٩ طـ١ دار الفكر العربي.

([٢]) سورة يوسف الآية (٣٧).

([٣]) في ظلال القرآن سيد قطب .جـ٤ صـ١٩٨٨ دار الشروق طـ١٧ سنة ١٩٩٢.

([٤]) مذاهب فلاسفة المشرق . د/ عاطف العراقي . صـ١٨٧ دار المعارف طـ١٠ سنة ١٩٩٢.

(د) مظاهر الحياة الدنيا.

" فالدنيا دار صراع بين الحق والباطل والخير والشر وغالبا ما ينتصر الشر فلو لم يكن هناك وقت تحاسب فيه النفس علي ما قدمته من أعمال ما استقام هذا مع العدل الإلهي " [١] .

لهذه الأسباب اهتم المصريون القدماء بالنفس وبحثوا عنها واعتنوا بها .

طبيعـــة النفـــــــس :

" يري بعض العلماء أن المصريين لم يكن لديهم في أول الأمر فكرة واضحة عن النفس وذلك بسبب اعتقادهم في تلك العهود البعيدة أن الجسم نفسه حي يستمتع بكل مميزات الحياة " [٢] ، ولكن هذا الاتجاه مرجوح برأي أخر ينبني علي أساس أن المصريين كانت لديهم فكرة واضحة عن النفس ، " فالمصري القديم اعتقد أن الإنسان مركب من جوهرين متمايزين هما الجسم والنفس " [٣] ، " وتسكن بالجسم صورة أخري مصغرة منه تسمي القرينة [٤] أو الكا " [٥] " وهي عبارة عن صورة لطيفة للشخص

([١]) الفلسفة الشرقية د/ محمد غلاب . صـ٥٧ الأنجلو المصرية طـ٢ ، انظر : الديانات القديمة للشيخ أبي زهرة صـ١٠ طـ دار الفكر .

([٢]) الفلسفة الشرقية. د/ محمد غلاب . صـ ٥٤-٥٥ طـ٢.

([٣]) حقائق عن التصوف في الإسلام . د/ محمد العدل الباز . صـ ١٠٠ مؤسسة الشيماء سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦ م.

([٤]) في فلسفة ابن سينا . تحليل ونقد . د/ محمود ماضي . صـ٩٣ نشر دار الدعوة . طـ١ سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

([٥]) كان معتقد أن الموتى يقيمون في مقابرهم وكان موقمم يفسر بأنه قوة خاصة بهم تسمي (الكا) هجرتهم ويستقبل كل إنسان هذه (الكا) عند مولده ، كما كان معتقدا أنها جوهر الحياة وسر الوجود . (انظر : ديانة مصر القديمة أدولف أرمان ترجمة د/ عبد المنعم بكر وآخرون صـ ٢٣٥-٢٣٧ الهيئة المصرية العامة للكتاب مهرجان القراءة للجميع صيف ١٩٩٧م) .

أو شبح غير منظور يولد مع الإنسان ، أو يحل فيه ويبقي بجانبه بعد الموت ليعني بالجسم والنفس " [١] .

" وقد رأي المصريون أن النفس لا تعيش إلا إذا كان الجسم سليما حيث إن سلامته تجعله صالحا لعودة الروح إليه مرة أخري ، بعد أن كانت فارقته بالموت " [٢] ، حيث إنها تطير إلى السماء وتعود إلى صاحبها من أن لآخر لزيارته ، ولكي تظل النفس أو الروح سعيدة لابد من بقاء مأواها خاليا من الخدوش . " فاخترعوا التحنيط مدفوعين إلى ذلك باحتياجهم إليه وأقاموه علي هيئة من التماسك " [٣] ، وظلوا علي ذلك أمدا ثم انتقلوا من التحنيط إلى النحت تجنبا للروح من الخطأ الذي يقع عليها .

" ولما كانت الأسطورة الدينية تشترط أن يكون هذا التمثال المنحوت شبيها بالجسم الأصلي في جميع أحواله وملامحه فقد دفعتهم هذه إلى الإجادة والإتقان بهيئة تعجز أكابر فناني العصور الحديثة ، كما عددوا التماثيل للميت الواحد حتى جاوزت في بعض الأحيان مائة تمثال للدفين الواحد لاحتمال أن يكون أحدها غير صالح فيكون الأخر صالحاً " [٤] .

وأري أن هذا التعدد للتماثيل جاء نتيجة :

أ) الإحساس الديني الجامح عندهم والذي كان ينغص مضاجعهم وتنذرهم بالعذاب الشديد إذا أخطأ المثال ولو في شئ يسير.

([١]) محاضرات الفلسفة الشرقية والإغريقية . د/ محمد خليل هراس . صـ ٩-١٠. طـ دار الأنوار سنة ١٩٦٣.

([٢]) الديانات القديمة . للشيخ أبو زهرة . صـ١٧

([٣]) الفلسفة الشرقية . صـ ٥٥-٥٦

([٤]) الديانات القديمة . صـ ١٧ وانظر الفلسفة في الشرق صـ ٥٨ .

ب) حرصهم علي أن تظل الروح في سعادة دائمة ولن يتأتى هذا حسب زعمهم إلا بانتقالها من تمثال لآخر.. [١] ، ولعل هذا يفسر لنا تركهم في القبر ثغرة بسيطة تنفذ منها الروح جيئةً وذهاباً

وخلاصة القول أن ما قام به المصريون " إنما كان لأجل حفظ الجثة وإراحة النفس " [٢] .

قوى النفس :

لقد كان من مظاهر عناية المصريين بالنفس قولهم بوجود قوي لها ولكل واحدة من هذه القوي ما يميزها عن غيرها .

فقد دان المصريون القدماء بوجود أربع قوى للنفس هي :-

أ) الروح " وهي الأساس الأعظم فهي أساس القوى في الإنسان " [٣].

" وقد تصوروها علي هيئة طائر له رأس إنسان وذراعاه تطابق ملامح وجه صاحبه ويسمي (الميز أو المجيد) وهي تنفصل عنه بعد الموت لتصعد إلى السماء لكنها تعود مرة أخرى من آن لآخر " [٤] .

ب) العقل والإرادة أو النفس . ومن الممكن أن تكون القوة السابقة قرينة له [٥] .

جـ) الشبح. وهو صورة صيغت من الأثير أو مادة أدق منها ولكنها علي هيئة الجسم تماما.

---

(١) الفلسفة الشرقية . صـ٥٥ – ٥٦ .

(٢) أضواء علي النفس البشرية . د/ عبد العزيز جاد . صـ٧٨ سلسلة اقرأ عدد ٥٣٠ دار المعارف بالقاهرة .

(٣) الفلسفة الشرقية. صـ٥٦ .

(٤) الخلود في التراث الثقافي المصري . د/ سيد عويس . صـ٢٧ ، البعث في الديانات القديمة وموقف الإسلام منها . رسالة ماجستير بنات الأزهر بالقاهرة مقدمة من / لواحظ عبد السلام علي صـ٣٢٥ سنة ١٤٠٩هـ ، سنة ١٩٨٩م .

(٥) الخلود في التراث الثقافي . صـ٢٧.

د) الكا. وهي الجوهر الخالد في الإنسان وفي كل اله والذي هو سر الحياة وسر السمو [١].

كما أنها هي الشرارة الإلهية تلك الشرارة التي تترك النفس بعد الوفاة ولم تتصل بها إلا وقت اتحادها بالمبدأ الاسمي أو وقت المثول للثواب أو العقاب [٢] .

" وتمتاز الكا عن بعض القوى عند المصريين بوجودها في السماء ما دام الإنسان حياً فإذا مات اتصلت به اتصالاً وثيقاً يجعله غير قابل للزوال " [٣] ، (ولهذا نعت القبر بأنه دار الكا) [٤] .

خلـــود النفـــس عند قدماء المصريين :

" لا يوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العالم احتلت في نفسه فكرة الحياة بعد الموت المكانة العظيمة التي احتلتها في نفس الشعب المصري القديم ، ومن الجائز أن ذلك الاعتقاد الملح في الحياة بعد الموت كلن يعضده كثيرا ويغذيه، تلك الحقيقة المعروفة عن تربة مصر ومناخها ، وهي أنها تحفظ الجسم الإنساني بعد الموت من البلى لدرجة لا تتوفر في أي بقعة من بقاع أخرى من العالم ، ويؤكد جيمس هنري برستد هذه الحقيقة " عندما يؤكد علي عصوره علي بقايا أجسام أثناء قيامه بعمليات حفر للتفتيش عن أثار فرعونية " [٥] .

([١] الفلسفة الشرقية . صـ٥٦ .

([٢] الدين والفلسفة والعلم . محمود المتولي . صـ٦٦ .

([٣] الفلسفة الشرقية . صـ٥٦ .

([٤] ديانة مصر القديمة . صـ٢٣٦.

([٥] فجر الضمير . جيمس هنري برستد صـ٦٣ – ٦٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب مهرجان القراءة للجميع صيف ١٩٩٩ .

لكن اللافت للنظر عند استعراضنا لهذه النقطة هو ذلك الشعور الديني الذي يلحظه الباحث وتتضح آثاره وتظهر معالمه من خلال كثرة أماكن العبادة وما هو مسطو رفيها ،وعليها "وإ ن كان ذلك بالطبع يأخذ صورة وطابع وجوهر الديانات الوثنية ،وهي كلها شرك بالله تعالي في نظر الإسلام ومفهومه " [١] .

فعقيدة الخلود لدي المصريين احتلت مكاناً بارزاً ، لدرجة انه لا يكاد يوجد مصدر تاريخي عندهم إلا ولهذه الفكرة بروز واضح ، وقد أكد هذه الحقيقة عدد من المؤرخين [٢] الذين لا يستهان بهم

يقول هيروديت : " إن المصريين هم أول الشعوب الذين دانوا وآمنوا ببقاء النفس وخلودها " [٣] .

ويقول ول ديورانت : " وكان أهم ما يميز هذه الديانة هو تأكيدها بفكرة الخلود " [٤] .

ولذا أراني لا أجانب الصواب إذا قلت أن أروع ما في هذه الديانة هو تأكيدها بفكرة الخلود ،والإيمان ببقاء النفس ،ولذلك أضع يدي في يد صاحب ديانة مصر القديمة عندما يقول :" لئن كان الشعب المصري يختلف عن غيره من الشعوب الأخرى فإنما ذلك في العناية التي كان يوليها صوب موتاه ،بخلاف اليهود أو الإغريق الذين لا يتحدثون كثيرا عن مصير موتاهم " [٥] .

---

(١) دراسات في علم الأخلاق . د/ نجاح الغنيمي جـ١ صـ١٠٣ – بدون.

(٢) أمثال جيمس هنري برستد ، وأدولف أرمان ، ول ديورايت ، وانطون ذكري صاحب الأدب والدين عند قدماء المصريين ، والشيخ محمد أبو زهرة وغيرهم كثير .

(٣) الأدب والدين عند قدما المصريين . أنطون ذكري . صـ١٠١ مطبعة المعارف طـ١ سنة ١٩٢٣ .

(٤) قصة الحضارة . ول ديورايت مجلد جـ٢ صـ١٦٢ . ترجمة محمد بدران . طبعة التأليف والترجمة والنشر .

(٥) ديانة مصر القديمة . صـ٢٣٢ .

ولهذا جاء في كتاب الموتى ما نصه ... " أنا لا أموت ثانية في العالم الأخر ، ووجد سطوراً أيضاً علي أحجار الأهرام ويرجع تاريخها إلى الأسر الأولي [1] " إن النفس خالدة لا تموت " [2] .

وعلي هذا فلو لم يكن المصريون القدماء آمنوا باليوم الآخر والحياة بعد الموت ، وحافظوا علي أجسادهم فأقاموا الأهرام والقبور بهذا الشكل ما كانت وصلت إلينا عقيدتهم ، ولا أي شئ أخر من معتقداتهم .

" ولظلت قبورهم ومعابدهم جمادا لا تتكلم ، واتخذناهم أشلاء لحضارة من ماضي بعيد لا نعرف عنها أدنى معرفة " [3] .

ولهذا وجدنا أحد الباحثين يقول :- " إن الفكرة التي سيطرت في الديانة المصرية هي فكرة الحياة المستقبلة " [4] .

دواعي إيمان المصريين بخلود النفس :

يصح القول أن إيمان المصريين القدماء بعقيدة الخلود لم يأت من فراغ ، وإنما جاء مشفوعاً يحمله من الدواعي أهمها ما يلي :-

١) طبيعة التربة المصرية :

فمن طبيعة التربة المصرية أنها تحفظ جثث الموتى وقد أكد هذه الحقيقة كثير من المؤرخين.

" ولابد أن حالة الحفظ التامة المدهشة للأجساد البشرية التي وجد المصري عليها أجداده الذين كان يكشف عنهم عندما يقوم بحفر قبر جديد

---

(1) الدين بين الوحي الإلهي والتحريف البشري . د/ فرج الله عبد الباري . صـ٩٢ مطابع الشناوي بطنطا.

(2) الأدب والدين . صـ١٠٧ .

(3) البعث في الديانات القديمة . رسالة ماجستير إعداد . لواحظ علي . صـ٤٧ .

(4) كناش في الفلسفة . جـ١ صـ٣٦ تأليف أ/ أمين الخولي . مطبعة أبي الهول (١٣٥١ هـ، ١٩٣٢م) .

في ذلك الوقت قد زادت اعتقاده في بقاء تلك الجثث البشرية إلى الأبد ، وأيقظت في خياله صوراً عظيمة في تفاصيلها عن عالم الأموات الذين رحلوا إلى الآخرة وعن حياتهم فيها " [١] .

٢) الرؤى والأحلام :

" فكثيراً ما كان المصري القديم يشاهد أناساً من الموتى يخاطبونه ، أو يشاهد أماكنهم التي يعيشوا فيها ، فأدي ذلك إلى الإيمان بأن الروح تعيش حياة مستقلة بعد الوفاة بعيدة عن الجسد ، وتظل خالدة فإذا كان الجسم صالحاً استطاعت الروح أن تعود إليه " [٢] .

٣) البقية الباقية من دعوة الرسل :

فالمصريون القدماء يعتقدون بخلود الروح ويؤمنون بالثواب والعقاب كما يعتقدون بوجود الجنة والنار وغير خفي أن هذه العقائد " عقائد فطرية من جانب ثم هي بقية من دعوة الرسل والأنبياء القين شرفوا مصر في فترات تاريخها الطويل " [٣] ، أمثال: إدريس وإبراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام ، وسبق أن أشرت إلي ذلك .

مصير النفس :

يصح القول إن مصير النفس مرتبط ارتباطا واضح الصلة بالخلود ذلك أن من لا يعتقد بالخلود للنفس قد قطع الأمل تماما في مصيرها ، فمن آمن بخلودها فقد جعل لمصيرها باباً مفتوحاً بالخير أو الشر، هذه قاعدة مطردة لا تشذ بحال فإذا طبقنا هذه القاعدة علي قدماء المصريين وجدناها

---

(١) فجر الضمير صـ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) الخلود في التراث الثقافي المصري . صـ٦١.

(٣) الأديان في الشرق . تأليف وترجمة : د/ رؤف شلبي صـ٢٧١ . نشر دار الشروق طـ٢.

تنسحب عليهم فمصير الحياة الأخرى مرهون عندهم بما تقدمه من أعمال في هذه الدنيا.

ولهذا جاءت دعواهم مركزة علي وجوب تحلي النفس بالفضائل ، وهجر الرذائل فقد جاء ما نصه:

" ... إن النفس إذا تحلت وتخلقت بالكلم الطيب، والعمل الصالح ، فإنها ترقى إلى أعلي ،وتتصف بصفات الآلهة – وذلك حسب اعتقادهم – وتظل تنتقل من مكان إلى أخر في هناء وسرور؛ علي حين أنها إذا كانت نفساً خبيثة فإنها تهوي إلى القاع " [١] .

ولعل ما خلدوه من حكم وأمثال يؤكد هذا المعني ويقرره [٢] ، " كما وردت عنهم تصورات عن الحساب والميزان والجنة والنار، وهي وإن كانت لا تخلو من صور وثنية إلا أنها تؤكد عنايتهم بمآل النفس ومصيرها " [٣] .

---

(١) الديانات القديمة . صـ١٨.

(٢) فقد جاء أن المرء يبعث بعد الموت وتوضع أعماله بجوار ، وأنه لفي ذلك الذي لا يكترث باليوم الآخر ، أما من أتاه بعمل صالح لا خطيئة فيه فسيكون مثواه يمشي فرحاً مثل الأبرار الخالدين . (انظر : الحكم والأمثال عند المصريين القدماء كمال محرم صـ٧٤ ، ٩٦ وما بعدها ، الهيئة المصرية العاملة للكتاب مهرجان القراءة للجميع صيف ١٩٩٨) .

(٣) اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام . د/ فرج الله عبد الباري صـ٣٧ –٣٨ دار الوفاء بالمنصورة طـ٢ سنة ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م .

تعقيب :

من خلال ما تم عرضه آنفاً يتضح لنا أن النفس موضوع من الموضوعات التي شغلت أذهان الباحثين وعقول المفكرين ، ودراسات العلماء أقلام الحكماء عبر العصور والدهور ، الأمر الذي جعل اللاحق يتأثر بالسابق فيأخذ منه ، أو يزيد عليه ، أو يعارضه ولعل ما عرضه البحث خير شاهد على هذا .

ولهذا رأيت أن أكتفي بما تم عرضه من شعوب الشرق القديم وذلك لعدة أسباب أهمها :-

(١) كثرة الأديان وتعددها في بلاد الشرق القديم بصورة يصعب معها في بعض الأحيان إبراز فكرة ، أو توضيح موقف ، ولعل هذا هو ما حدا بعض الباحثين المحدثين إلى وضع ديانات تلك الشعوب علي النحو التالي :-

ديانات بلاد الرافدين .
ديانات بلاد سوريه .
ديانات بلاد مصر القديمة .
ديانات فارس والرومان .
دين الصين [1] .

وهذه الكثرة بلا شك تؤدي إلى نوع من الإطالة والتكرار الذي لا حاجة إليه هنا ، فقد اتصلت هذه الشعوب بعضها بالبعض الآخر وأعاروهم واستعاروا منهم ، الأمر الذي يترتب عليه تكرار الفكرة في أكثر من مكان ، ولعل قصة الخلق عند الهنود والمصريين خير شاهد علي هذا .

---

(١) ملل ونحل قديمة ومعاصرة . د/ فتحي الزغبي • صـ ٢٧ ، تأثر اليهودية بالأديان الوثنية . للمؤلف نفسه صـ ١٠٨ . طـ دار البشير بطنطا • طـ ١ • ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م•

(٢) إضافة إلى هذا كله أن تلك الشعوب وهذه الديانات الوضعية التي عرض لها البحث قد استوعبت كثيراً من البشر في فترات طويلة من التاريخ بما يصلح أن يكون جواباً شافياً ودليلاً واضحاً لنظرة بقية الشعوب الأخرى التي لم يتعرض البحث لها .

(٣) ولعل أهم هذه الأسباب جميعا هو أن معظم الكتاب والباحثين عبر العصور المختلفة أقروا واعترفوا بأن الديانة المصرية القديمة تعد مهد التفلسف ، والحضارة في الشرق لقديم إن لم يكن للعالم كله وما عداهم فليس لهم أي جانب يذكر اللهم إلا المحاكاة والتقليد [١] .

---

(١) انظر : دراسات في الفلسفة اليونانية د/ جمال شلبي . صـ ٢ – ٧ (بدون) ، أثر المدنية الإسلامية في الحضارة الغربية د/ مختار القاضي صـ ٥٠ – ٥٩ ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. الأهرام التجارية. سنة ١٣٩٦ هـ – ١٩٧٦م.

المبحث الثاني : الأخلاق عند اليونان

لا يوجد مبحث فلسفي نال من الحظوة والشهرة ما ناله مبحث الأخلاق عند اليونان ، وذلك لأنها ركيزة الحديث عن الأخلاق الغربية بعامة منذ اليونان ومروراً باليهودية والمسيحية ، ووصولاً إلى المذاهب الأخلاقية الغربية في العصر الحديث ، كما أن هذا المبحث قد نال من مؤرخي الفكر العربي بعض العناية – وهي ليست قليلة – لربطهم علم الأخلاق عند العرب والمسلمين بجذور الفكر الأخلاقي عند اليونان بشكل أو بآخر . هذا أمر ينبغي أن يكون واضحاً .

وهناك أمر آخر لا يقل أهمية عنه هو أن البدء بسقراط في الأخلاق اليونانية لا يعني أنها بدأت من عنده ، بل على العكس من ذلك فقد سبق في هذا الاتجاه بعدة آراء ، ومن بين هؤلاء الفيثاغوريين الذين كان لهم مذهب أخلاقي يقوم على نوع من التصوف [١] ويصفه بعض الباحثين بقوله :

ومن قواعد سلوك الجماعة امتحان الضمير ، اليومي ، فكل مساء كان على العضو أن يسأل نفسه فيما فشلت ؟ ما الطيب الذي فعلت ؟ لماذا لم أفعل مما كان يجب علي أن أفعل ؟ .

أما عند استيقاظه فكان عليه أن يحدد برنامج يوميه .

ومن القواعد الأخلاقية التي كانوا يملونها على أتباعهم :

١- احترام الآلهة والخضوع لإرادتهم .

٢- البقاء في المركز الذي نحن فيه في الحياة وعدم تركه .

٣- الولاء للأصدقاء وكل شيء مشترك بينهم .

٤- الاعتدال والبساطة في استخدام خيرات الدنيا [٢].

---

(١) أنظر : الأخلاق بين العقل والنقل ، د. أبو اليزيد العجمي ، ص ١٤٦ .

(٢) أنظر موجز تاريخ الفلسفة اليونانية ، د. عزت قرني ، ص ٢٦ ، بدون نقلاً عن السابق صـ ١٤٥ ، ١٤٦.

وفي عرضنا للجانب الأخلاقي عند فلاسفة اليونان آثرنا أن نبدأ به وذلك لعدة أسباب :

١- أن المرحلة التي سبقت سقراط كان البحث الفلسفي موجها فيه نحو العالم الخارجي ، ما أصله ؟ وما مصيره ؟.

٢- أن الحديث عن الأخلاق في هذه الفترة حديث بسيط .

٣- أن الفترة التي سبقته يصعب معها تكوين مذهب فلسفي متكامل عن الأخلاق .

٤- أن حديث سقراط عن الأخلاق حديث واضح يمكن معه تكوين مذهب فلسفي متكامل عن الأخلاق على الرغم من الظروف التي كان يمر بها عصره .

٥- وجود ما يشبه الإجماع بين مؤرخي الفلسفة على أن سقراط هو مؤسس الفلسفة الأخلاقية في العالم الغربي . لهذا كله آثرنا البدء به .

أ - سقراط

اهتم سقراط اهتماماً بالغاً بالجانب الأخلاقي بل إنه ينظر إليه على أنه أول من أسس هذا العلم على أساس فلسفي .

وقد اتجه سقراط في مذهبه الأخلاقي إلى محاولة " بناء معاملات الناس على أساس علمي " وكان يذهب إلى أن الأخلاق والمعاملات لا تكون صحيحة إلا إذا كانت مبنية على العلم ، ولهذا فإنه كان يرى أن الفضيلة هي العلم ، وأن الرذيلة هي الجهل [1].

---

(١) أنظر : مقدمة في علم الأخلاق ، د. زقزوق ، ص ٤٩ .

مذهبه الأخلاقي :

يمكن القول : إن سقراط اختار لنفسه مذهباً ينحصر في أمرين هما :

١- الإقرار بوجود حقيقة وأن معرفتها ممكنة .

٢- ربط العلم بالعمل وجعل المعرفة أساساً للسلوك .

وفي حدود هذين المبدأين كانت تفصيلات المذهب ، والحقيقة ممكنة لكن ليست في كل العالم إذ المعرفة الشاملة ليست في استطاعتنا [1] ، لكن توجد معرفة ممكنة بالنسبة لنا وهي البحث الصالح والطالح ، في الشرف والوضاعة ، في العدل والظلم ، والحكمة والجنون ، في سمو النفس وصغرها ، في الدولة ورجل الدولة ، في الحكومة وتوجيهها وبالاختصار كان يبحث في كل ما يكون الرجل الشريف الصالح وفي كل ما يدونه لا يستحق الإنسان إلا اسم العبد الرقيق [2] .

وما دامت المعرفة ممكنة في هذا النطاق المهم لحياة الفرد والدولة ، فإن الفضيلة تكون في المعرفة ، والرذيلة تصاحب الجهل ، وسواء كانت المعرفة هنا هي معرفة الفضيلة في موضوع الاختيار البشري أم في معرفة الخير العام الموصل للسعادة فإن سقراط بهذا قد تجاهل الإرادة البشرية التي تحيل المعرفة إلى سلوك ، كما تجاهل جموع الناس وعامتهم ممن لا يتمكنون من هذه المعرفة وفي هذا تجاهل للواقع حيث يعرف بعض الناس الخير ولا يعملون بمقتضاه ، ويعمل بعض الناس الخير وهم لا يعرفون أسسه النظرية .

---

(١) أنظر : الأخلاق بين العقل والنقل ، د. أبو اليزيد العجمي ، ص ١٤٨ .

(٢) انظر : المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ، صـ ٧٣ .

كذلك ربط سقراط بين هذه المعرفة للفضيلة وبين جهد فردي لا بد أن يكون بداية لهذه المعرفة هو تطبيق العبارة التي وجدت على معبد دولف للآلهة أبولو " اعرف نفسك بنفسك " الأمر الذي جعله يوجه نقده للجماهير لاغفالهم هذه الحقيقة [١].

فلا يمكن للمرء أن يعيش إلا أذا أخفق عملياً هذا المبدأ فالواقع لا يوجد أعظم من معرفة الإنسان لنفسه وهي أساس كل خير ؛ بل إنه الخطوة الأولى للتفكير المنظم ، فالإنسان إذا وضع نفسه موضع تأمل واتجه بفكره إلى ذاته يستطيع أن يعرف أسرارها ويحدد مكنوناتها . " فمعرفة النفس تؤدي إلى معرفة قواها ونزعاتها وميولها وهذا موضوع علم النفس ومعرفة النفس تؤدي إلى معرفة القوانين المنطقية للتفكير الصحيح ، وهذا هو موضوع علم المنطق ، ومعرفة النفس تؤدي إلى معرفة جوهرها وأصلها ومصيرها وهذا هو موضوع علم ما وراء الطبيعة ، ومعرفة النفس تؤدي إلى معرفة طرق سلوكها وفقاً لطبيعها الخاصة وهذا هو موضوع علم الأخلاق " [٢] .

وهكذا وضع سقراط للفكر الإنساني برنامجا لا يزال هو برنامج التفكير الفلسفي إلى يومنا هذا .

ثم ربط بين هذه المعرفة وغاياتها حيث جعل الفضيلة في كل عمل تستهدف السعادة كغاية قصوى للسلوك البشري ، وهذه السعادة تتحقق بالانسجام والتوافق بين رغبات الإنسان والظروف حوله ، فسعادتنا هي حكمتنا تجاه حاجاتنا ورغباتنا .

---

(١) الأخلاق بين العقل والنقل ، صـ ١٤٩ .

(٢) تاريخ الفلسفة العربية ، حنا الفاخوري ، خليل الجر، جـ ١، ص ٦٤ ، دار الجيل ، بيروت .

وأما الفضائل عنده فهي كثيرة لكن أعلاها القناعة وذلك لكي يسهل التوافق مع الظروف حولنا ، كما أشاد بفضيلة العمل وهو السبيل لاكتساب ما يلزم الإنسان في حياته كما أشاد بالرياضة البدنية ، فما من شك أن الصحة والقوة والاتزان والشجاعة ترتكز عليها ، كما أشاد بالعدل [1].

إذن فمذهبه يتلخص فيما يلي :

١- إيمان بالمعرفة في مجال السلوك الإنساني خاصة .

٢- الفضيلة هي المعرفة والرذيلة جهل .

٣- بداية المعرفة معرفة النفس .

٤- الفضائل غايتها سعادة الإنسان .

٥- أعلى الفضائل القناعة لأنها تيسر الانسجام بين الإنسان وظروف الحياة حوله .

ومع الانتقادات التي يمكن أن توجه إلى فلسفة عقلية محضة ، وحدت بين الفضيلة والمعرفة وتجاهلت الإرادة الإنسانية ، وبدت فيها ملامح العنصرية الطبقية ، أقول مع وجود هذا فإن بعض الحقائق تبقى شاهدة لمكانة سقراط بين مفكري الأخلاق ، منها :

١- أنه لوحظ أن فلسفته الأخلاقية لم تخل من عنصر احترام الآلهة وتقديس الواجب وقد شهد له بذلك بعض مؤرخي الملل والنحل من المسلمين ، كما شهد له غيرهم به ، بل إن نهاية حياته مقتولاً بالسم قد فسرت على أنها بسبب هجومه على آلهة المدينة وقوله بوجود غيرهم .

(١) أنظر : المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ، ص ٧٤ : ٨٠ .

٢- أنه أثار كثيراً من قضايا الأخلاق التي شغلت تلامذته بل امتد تأثيرها إلى المذاهب الأخلاقية الحديثة ، تلك التي أخذت بمعيارية العلم وثبات القيم .

٣- فضلاً عن سلوكه الشخصي الذي كان يتسم بالزهد والصدق الذي دفع حياته ثمناً لـه ، بل إن البعض يفسر دعوته بشدة إلى الزهد وتقليل الرغبة في الحاجات ، يفسرها بأنه كان يرى الناس جميعاً مثله [1].

ب – أفلاطون

نال أفلاطون شهرة ذائعة ، ومن خلال آرائه التي رددها على لسان سقراط في محاوراته حتى إن "كرسون" تشكك في هل كان ترويجاً لآراء سقراط وفاء من التلميذ لأستاذه أو هي آراء أفلاطون أراد أن يلبسها ثوباً من القبول [2] .

ومع هذا فلم يكن صورة مكررة من آراء سقراط ، بل خالفه في بعض الآراء مثلا ، خالفه في التوحيد بين الفضيلة والمعرفة مبيناً " أن العلم ينتقل من عقل إلى عقل عن طريق البراهين والأدلة وليست الفضيلة كذلك ، فإن أفاضل أثينا لم يمكنهم بمجرد الدروس التعليمية أن يصيروا أبناءهم فضلاء مثلهم ، ليس العلم إذن هو الذي يصير الرجل فاضلاً ، وإنما الفضيلة ترجع إلى إلهام وبصيرة يشوبهما قبس من التحمس الديني " [3].

---

(١) أنظر : الأخلاق بين العقل والنقل ، ص ١٥٠ ، الأخلاق بين الفلاسفة وحكماء الإسلام ، ص ٣٠ : ٣٥ ، المشكلة الأخلاقية ، ص ٧١ : ٨٣ ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، يوسف كرم ، ص ٥٣ – ٥٤ ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٤ .

(٢) أنظر : المشكلة الأخلاقية ، ص ٨٤ – ٨٥ .

(٣) نفس المصدر ، وأنظر : فلسفة الأخلاق ، ص ٧٣ – ٧٤ ، الأخلاق بين العقل والنقل ، ص ١٥١ – ١٥٢ .

ومما ينبغي ملاحظته أن أفلاطون زاد على أستاذه في جعل مكانة الدين في الأخلاق أكثر أهمية ، حيث تحدث عن خلود الروح وعن الثواب والعقاب ، وعن عودة أرواحنا إلى أجسام جديدة لم تبل ، وأننا نحن الذين اخترنا عملنا وأجسامنا التي كنا فيها ، لذا ينصح بأن نفكر ، كما انه يدعو إلى التفلسف حتى لا ننخدع ويمكننا اختيار الأفضل في المرة القادمة (١).

كما أنه يتفق مع سقراط في أن الغاية هي السعادة أو الخير المطلق ، لكنه يرى أن الطريق إلى ذلك ليس العلم وحده ، وليست اللذة وحدها ، بل التوفيق الذي يكون بين العلم واللذة ، ولكي لا يحدث صدام بين العلم واللذة بين أن العلم يوازن بين أنواع اللذات فلا يختار الدون منها ، بل يختار اللذات العليا وهي تتفق غالباً مع العقل والعلم ، بل اعتبر أن اللذات الصافية وما يصاحبها من صحة واعتدال هي بمثابة حاشية الآلهة تسير في ركابها أنى سارت (٢).

وليس معنى اعترافه باللذة جانباً من جوانب تحقيق الخير أنه من أنصار مذهب اللذة لأنه يرى أن الحكيم هو من يستطيع أن يتغلب على اللذات الوضيعة لأن من أدرك أن العلم يجب أن يكون عنصراً في سعادته يجب أن يتحاشى السير وراء هذه الشهوات البهيمية الوضيعة التي تبث لا محالة الاضطراب في النشاط العقلي وتعكر طمأنينته ، فهناك لذات صافية نقية تشعر بالراحة كما أنها خالية من العنف ، بل إن بعضها يصحب بطبيعته المعرفة (٣).

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٨٦ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٨٦ – ٨٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٨٧ – ٨٨ ، فلسفة الأخلاق ، ص٧٥ – ٧٦ .

الفضائل في فلسفة أفلاطون

نظر إلى الفرد كما نظر إلى المجتمع على أن كلا منهما مكون من عناصر لا تتحقق الفضيلة ولا السعادة إلا بانسجام بين هذه العناصر ، وهذا يعني أن يقوم كل عنصر بدوره لا يتعداه ، وأن يعرف مكانه لا يتخطاه فالفرد مكون من :

١- العقل ومهمته التفكير ومقره الرأس .
٢- العواطف كريمة وتنبع من القلب .
٣- الشهوات ومقرها البطن .

هذه القوى تحكمها فضائل ثلاث وفوقها فضيلة عليا ، والفضائل هي الحكمة لقوة العقل والعفة للشهوات والشجاعة للعواطف ، ثم هناك فضيلة العدالة التي تعني الانسجام بين هذه الفضائل الثلاث فتذعن الشهوية للغضبية ويذعنان معا للعقل .

والمجتمع عنده كذلك لابد أن يتكون من ثلاثة طبقات :

١- الطبقة الذهبية : وهي طبقة الحكام الذين يسيرون أمور الدولة .
٢- الطبقة الفضية : وهي طبقة الجند المكلفين بالدفاع عن الوطن .
٣- الطبقة النحاسية : وهي طبقة الزراع والصناع والتجار .

وسعادة المجتمع وخيره تتحققان إذا حدث الانسجام والعدالة بين هذه الطبقات ، إذ العدل يتحقق من الترتيب الذي وضعته الطبيعة ، وينشأ الظلم من اغتصاب أي عنصر من العناصر السيادية بدون حق طبيعي له .

ومعنى هذا أن تخضع الطبقة النحاسية " طبقة الشهوات " للطبقة الفضية " طبقة العواطف " ويخضعان معا للطبقة الذهبية " طبقة العقل أو

الفلاسفة " ووفق هذا كان منهاج أفلاطون في تربية هذه العناصر ، كل على حدة ، وقد حدا به هذا الفهم إلى مخالفات شنيعة لعل أخطرها مجافاته للأخلاق ذاتها حين أشاع كل شيء من طبقة الجنود فلا مال ولا ولد ولا زوجة يمكن أن يكون ملكاً لأحد [١].

الانتقادات التي وجهت إلى مذهبه :

(١) إقراره مبدأ الشيوعية : برغم الشهرة والتقريظ الذي حظى به أفلاطون لدى كثير من المؤرخين فإنه تعرض لانتقادات قوية ، وحسبك أن تقرأ كتابه " الجمهورية " لترى عنصريته ، وشذوذه في شيوعية المال والنساء ودعوته إلى الاستعباد ، ونبذه الحرية والديموقراطية ، وامتهنته لكرامة الإنسان ؟

(٢) مخالفته للطبيعة البشرية ويبدو ذلك واضحا من خلال تقسيمه للناس ، فالناس عنده أصناف " ناس من ذهب، وناس من نحاس " فضلا عن إباحته الكذب حين يبيح للحكام أن يكذبوا ويخدعوا أعداءهم أو المواطنين ، وفضلا عن نازيته ، حين يبيح أن يترك الأطباء بعض المرضى يموتون دون علاج [٢].

(٣) فإذا أضفنا إلى ذلك ما وصف به سارتون أفلاطون من صفات شخصية تتردد بين الغش والخيانة والكذب والغرور [٣]. إذا أدركنا هذا أمكننا أن نقول إن القداسة التي أضيفت على فلسفة أفلاطون الأخلاقية والتي جعلت كثيراً من الباحثين يتناقضون مع أنفسهم ويرون أن ترجمتها أثرت

---

(١) أنظر : المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ، ص ٨٨ : ٩٣ ، الأخلاق بين العقل والنقل ، ص ١٥٣ – ١٥٤ .

(٢) الأخلاق بين العقل والنقل ، ص ١٥٤.

(٣) انفس المصدر، ص ١٥٤ .

في الفكر الإسلامي ، في الوقت الذي يحكون ما أثبتناه من عنصرية وطبقية واضحة ، أقول : " هذه القداسة محض خرافة ، بل هي من أوضح الأدلة على غزو منهجي للعقل العربي والمسلم ، وعلى أن العقل اليوناني – مهما حيك حوله من أساطير – قاصر على إدراك الحقيقة الأخلاقية وحده [١].

(٤) انسياقه مع الخيال في بعض جوانب من مذهبه ، وخير مثال على ذلك نظرية المثل عنده فقد أطلق العنان لخياله بصورة واضحة [٢].

جـ – أرسطو

من المعلوم أن علم الأخلاق هو أحد فروع الفلسفة العملية وهذه الفلسفة لها فروع ثلاثة وهي :

١– علم الأخلاق الذي يعنى بوضع قواعد للحياة الفردية .

٢– علم تدبير المنزل وهو خاص بالقواعد الأسرية .

٣– علم السياسة وهدفه الحياة الاجتماعية .

وقد عبر أرسطو عن مذهبه الأخلاقي من خلال كتابه المعروف باسم " الأخلاق النيقوماخية " .

ويمكن إيجاز مذهبه الأخلاقي في النقاط الآتية :

أولاً : السعادة غاية قصوى للسلوك البشري ، فالناس جميعاً يفعلون الخير طلباً لغاية قصوى هي السعادة ، التي يجب أن يهدف إلى تعليمها علم

---

(١) أنظر : فلسفة الأخلاق ، د. الطويل ، ص ٧٩ .

(٢) الأخلاق بين العقل والنقل ، ص ١٥٤ .

الأخلاق باعتبارها ما ينبغي أن يتجه إلى سلوك الإنسان ، فنحن نريدها دائما لذاتها لا لغاية أخرى وراءها .

ثانياً : السعادة عند أرسطو ليست في اللذائذ والشهوات لأن هذا هو مطالب العبيد الذين لا يملكون المقدرة على التعقل بل يرى أنهم استعبدتهم شهواتهم ولم يستطيعوا التحرر منها ، ورفض كذلك أن تكون السعادة ثراءً ومالاً لأنهما يفنيان ولا يحققان إلا نفعاً عاجلاً ، ولا يرى كذلك [١] ، أن تكون الجاه والمجد هما السعادة لأن ذلك ليست ملكاً لإرادتنا ، والواقع يشهد بأن كثيرين من أصحاب الجاه محرومون من السعادة ، فالسعادة تستلزم النشاط ، فلا سعادة بدون نوع من العمل ، فالسعادة عنده تكون في أداء الإنسان لوظيفته باعتباره كائناً ميزه العقل عن النبات والحيوان ، ويؤكد ان أصحاب المهن لا ينسبون إلى مهنهم وحرفهم إلا إذا أدوا وظيفتهم ، وكذلك أعضاء جسم الإنسان لا يشعر الإنسان بسعادة وجزء من حواسه معطل من القيام بوظيفته .

ثالثاً : وعليه فإن بالإنسان قوى نباتية ، وقوى حيوانية ، وقوى عقلية .

فإذا شارك النبات والحيوان في عملية التنفس والهضم فإن ذلك لا يحقق له السعادة ، وإنما تتحقق له إذا تميز بأن نهج نهجاً عقلياً في حياته جعله يحكم غيره من القوى النباتية والحيوانية [٢] .

---

(١) أنظر : المشكلة الأخلاقية ، ص ٩٥ : ٩٩ ، الأخلاق بين العقل والنقل ، ص ١٥٥- ١٥٦.

(٢) أنظر : المشكلة الأخلاقية ، ص ٩٩ - ١٠٠ ، الأخلاق بين العقل والنقل ، ص ١٥٦- ١٥٧ .

رابعاً : لم يمنع أرسطو أن يستلذ الإنسان ببعض الملذات لكن بشرط أن يحكمها العقل وأن يوازن بينها فيختار الأقرب إلى العقل ويترك اللذات الوضيعة .

وعليه فالإنسان يمارس نوعين من الفضائل :

١- نوع راق يناسب الفكر والتعقل والتأمل .

٢- نوع أقل يتناسب مع ما في الإنسان من قوى أخرى ويخضع لحكم العقل وتتحقق السعادة بوجود هذين النوعين من الفضائل .

خامساً : الفضائل العقلية تحتاج إلى تعلم والفضائل الأخرى تكتسب بالمران والممارسة ، ولا تصير الفضيلة كذلك إلى إذا صارت عادة وملكة وخلقاً يسلك الإنسان معها السلوك الأخلاقي بيسر وسهولة .

سادساً : الخيرات الخارجية كالمال والولد تعين على تحقيق السعادة لكنها ليست منها ، لأن أرسطو يرى أن أنواع الخيرات ثلاثة :

١- خير خاص بالنفوس .

٢- خير خاص بالأجسام .

٣- خير خارجي .

أما النوع الأول فهو أساسي وجوهري وما عداه تابع له وإن كنا لا نقلل من أهميته [1].

---

(١) أنظر : المشكلة الأخلاقية ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

سابعاً : أما مفهوم الفضيلة عنده أو مقياسها فهي وسط بين رذيلتين ، فالشجاعة وسط بين التهور والجبن ، والاعتدال فضيلة بين الشهوانية والبلادة ، والعزة بين الغرور والخسة .

ونلاحظ أن الفضائل التي هي أوساط بين رذيلتين إنما هي الفضائل التي دون التأمل والتعقل والتجريد ، أعني الفضائل التي تحقق للإنسان نوعاً من التوازن في ضوء العقل والتأمل كفضائل عليا ليس لها حدود [١].

وقد عمل أرسطو قائمة كبيرة بالرذائل الفضائل منها :

١ – الجبن ٢ – البلادة ٣ – الخسة ٤ – الضعف

وفضائل أوساط مثل :

١ – الشجاعة ٢ – الاعتدال ٣ – العزة ٤ – المجاملة

والإنسان إذا نظم حياته بناء على هذه القواعد عاش عيشة طيبة خصوصاً وأنها لا تمنع الإنسان من أخذ حظه من اللذة [٢] .

نقد أرسطو

إن من أهم المآخذ التي أخذت على فلسفته الأخلاقية العنصرية الواضحة يؤكد على هذا أحد الباحثين بقوله :" وإذا كان ارسطو قد اقترب من الواقع حين ترك خيال المثل الأفلاطونية وحين تناول الطبيعة البشرية بتحليل معقول ، فإن فلسفته الخلقية – عند التحليل الأمين – تفقد صفتها الأخلاقية ، لأنه وقع في عنصرية وطبقية كتلك التي أودت بفلسفة أفلاطون الأخلاقية " [٣] ، فنظريته الأخلاقية تبدو العنصرية فيها واضحة الأمر الذي

---

(١) أنظر : الأخلاق بين العقل والنقل ، ص ١٥٧ – ١٥٨ .

(٢) فلسفة الخلاق ، د. توفيق الطويل ، ص ٩٣ .

(٣) الأخلاق بين العقل والنقل ، ص ١٥٩ .

يجعلنا نقول مع الدكتور الطويل : " لم يستطع في بعض جوانب مذهبه أن يعلو على العرف الاجتماعي الذي كان يتحكم في أهل عصره فسلم مع أفلاطون بالرق ، وأباح سيادة الزوج على زوجته والأب على أبنائه ورفض المساواة بين الناس وخص الأقلية بأحسن الأشياء ، وطالب الأكثرية بالقناعة " [1].

بقي أن نقول أن السعادة التي اعتبرها أرسطو غاية للسلوك الإنساني فسرت من بعد ، أختير طريق الوصول إليها بشكل يختلف مع ما أراده أرسطو ، فكان مذهب الرواقية والأبيقورية وهما متفقان في الغاية ، مختلفان في الأسلوب ، ولأننا لا نريد أن نؤرخ لمذاهب الفلسفة من جهة ، ولأننا سوف نعرض لمذهب اللذة وموقف أبيقور منها ، نكتفي بنقل هذا النص للدكتور الطويل .

عجز خلفاء أرسطو عن تفهم مذهبه الشامخ فتفرع مذهبه إلى مذاهب ، تبنى زينو – ٢٧٠ ق م – فكرة الطبقة الناطقة ومضى فيها حتى نهايتها فاستحالة عنده إلى ضرورة العمل على قمع الأهواء ووأد الشهوات ، ومحاربة اللذات ، والإشادة بحياة الزهد والحرمان تحقيقاً للسعادة السلبية التي كانت سمة العصر كله ، وأنشأ مدرسة الرواقية .

أما أبيقور – ٢٧٠ ق م – فقد راقه القول باللذة ووحد بينها وبين السعادة فمضى في الفكرة حتى تحولت عنده إلى دعوة للتمتع باللذات ابتغاء الحصول على طمأنينة النفس ، وأنشأ مدرسة تبشر بدعوته هي مدرسة الأبيقورية .

---

(١) فلسفة الأخلاق ، ص ١٠٦ – ١٠٧ .

ومرد الاتجاهين المتضادين آخر الأمر إلى أرسطو ، ثم هما متفقان بعد هذا في جعل السعادة السلبية غاية قصوى للحياة [١].

أما تفصيل هاتين الفلسفتين ، ومقدار ما وجه إليهما من طعون ، كان لها أثرها السيء في كثير من المذاهب الأخلاقية بعدهم فهذا ليس من خطتنا ، ويطلب في مظانه [٢] ، وبعد فقد كانت هذه صورة موجزة عن الفكر الأخلاقي عند أشهر فلاسفة اليونان ، وننتقل الآن إلى مرحلة أخرى من مراحل الفكر الأخلاقي ألا وهي الأخلاق في الفكر المسيحي .

---

(١) أنظر في ذلك : المشكلة الأخلاقية ، ص ١٠٤ : ١٢٨ .

(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٢١٤ : ٢٣٣ ، مشكلة الأخلاق ، ص ١٢٢ – ١٢٣ .

المبحث الثالث : الأخلاق في العصور الوسطى

أولاً : العصور المسيحية :

بعد عرضنا للجانب الأخلاقي في الفلسفات الشرقية القديمة واليونانية ننتقل إلى مرحلة أخرى من مراحل الفكر الأخلاقي ، ألا وهو الفكر الأخلاقي المسيحي الذي يعد أرقى التفكير الأخلاقي بعد اليونان وقبل مجيء الإسلام لما هو معلوم من أن المسيح عليه السلام جاءت رسالته دعوة إلى التسامح والعفو والرحمة والإحسان .

وقبل عرضنا للجانب الأخلاقي لأحد رجال المسيحية وهو " القديس أوغسطين " لابد من الإشارة إلى أهم الخصائص الأخلاقية للديانة المسيحية فنقول وبالله التوفيق :

لقد اتسمت الحضارة المسيحية بخصائص أخلاقية يتمثل أهمها فيما يلي:

أ- الأخلاق المسيحية مبنية على الوجدان لا العقل :

إذا كان الاتجاه العقلي هو السائد لدى فلاسفة الأخلاق من القدماء كسقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، والأبيقورية والرواقية جميعاً ، إلا أن هذا الاتجاه العقلي يتنافى في جملته مع الروح المسيحية التي أقامت خُلُقها على الوجدان ، وأعلنت أن العقل لا يحدد الفضيلة والرذيلة ، ولا يميز بين الخير والشر ، وإنما ذلك التحديد والتمييز من صنع الله .

يقول القديس " أوغسطين " : إن الفضائل إذا انقطعت صلتها بالله كانت رذائل ، فمن الخطأ أن يزعم الأخلاقيون أن الفضائل تطلب لذاتها ،

وليس من أجل غاية تقوم وراءها . فإن مثل هذه الفضائل لا تعدو أن تكون رذائل .

ويفهم من كلام " أوغسطين " : أن الفضيلة لا تطلب لذاتها ، ولا لنتائجها النافعة ، وإنما تطلب الفضيلة لأنها تتمشى مع إرادة الله [١] .

ب – المثل الأعلى في الآخرة :

ذهبت المسيحية إلى أن الشهوة قيد يستعبد الإنسان ، وأن الناس مهما بذلوا من جهد فلن يستطيعوا أن يتخلصوا من قيود هذه الشهوة وشرورها ، ولكي يعيشوا حياة طاهرة فلابد لهم من الخلاص ، ومن أجل ذلك جاء المسيح ليعينهم ويخلصهم ، فالمثل الأعلى لا يتحقق في الدنيا ، ولكن يحققه الأبرار في ملكوت الله .

جـ – وجوب المحبة بين الناس :

لاشك في أن الفلسفات الأخلاقية القديمة قد حفلت بدعوة الناس إلى التسامح ، وإلى أن يحب بعضهم بعضاً ، ولكن هذه المحبة لم تأخذ صفة الحتمية الواجبة الطاعة في تلك الفلسفات ، أما الأخلاق المسيحية فإنها تحمل محبة الإنسان لأخيه الإنسان فرضاً مفروضاً ، وواجباً محتماً ، بل هو أساس من أسس المسيحية ، ويقلون عن المسيح أنه قال لحواريه في موعظة على الجبل : " أحبوا أعداءكم ، وباركوا لا عنيكم ، وأحسنوا لمبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات " [٢] .

---

(١) أنظر : الإسلام والمذاهب الأخلاقية ، د. إبراهيم محمد ، ص ١٠٨ – ١٠٩ ، مطبعة الأمانة ، ط١ ، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م .

(٢) أنظر : الإسلام والمذاهب الأخلاقية ، د. إبراهيم محمد ، ص ١٠٨ – ١١٠ ، مطبعة الأمانة ، ط ١ ، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م ، وقارن : أضواء على النظريات والمذاهب الأخلاقية : د. محمد حسن عمار – ١٥٥ – ١٥٧ .

ومن تعاليم المسيح عليه السلام : (حب المرء لله ، وهو أن يحب قريبه كنفسه ، ، عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به ، إن وصيتي إليكم أن يحب بعضكم بعضاً كما أحببتم . لا يوجد حب أعظم من أن يعطي المرء من حياته لأصدقائه . كل شجرة صالحة تثمر ثمراً جيداً ، والشجرة الفاسدة تثمر ثمراً رديئاً ، لا تستطيع شجرة صالحة أن تثمر ثمراً رديئاً ، ولا الشجرة الفاسدة أن تثمر ثمراً جيداً ، كل ثمرة لا تثمر ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار ، فمن ثمارهم تعرفون) [1] .

وفي إنجيل متى يقول عيسى عليه السلام : (من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر ، ومن أراد مخاصمتك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً ، ومن سألك فأعطه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده ، ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين [2] .

د – مايزرعه الإنسان إياه يحصده :

إذا كانت بعض الفلسفات الخلقية القديمة قد أدركت فكرة السعادة ، والتعاسة بعد الموت ، فإن المسيحية قد ربطت بين عقيدة الثواب والعقاب في الآخرة ، بما تسلكه أخلاقياً في حياتنا الدنيا ، فمن يعمل خيراً فسيجد خيراً ، وعلى المسيحي أن يثق بالله وأن يطمئن إلى رحمته ، لأن الله سبحانه في وسعه أن يغفر للمذنب خطاياه إذا هو ندم عليها ، وتاب منها .

ومعنى ذلك : أن الأخلاق المسيحية جاءت قائمة على العقيدة مرتبطة لها ، وقد ظهر من رجال الدين المسيحي فلاسفة قدموا أفكاراً فلسفية ،

---

(١) أنظر كتاب : مباحث في فلسفة الأخلاق – د / محمد يوسف موسى ، ص ٣٢ ، نقلاً عن كتاب أصول العقيدة الإسلامية والأخلاق – تأليف لجنة من أساتذة قسم العقيدة والفلسة بكلية أصول الدين بالقاهرة ، صـ ١٤٣ .

(٢) العهد الجديد ، انجيل متى ، صـ ٥ ، الإصحاح ٣٩ – ٤٢ ، ط دار الكتاب المقدس .

حاولوا – فيها – التوفيق بين الحقائق العقلية والتعاليم الدينية ، نسوق منهم ما يلي :

القديس " أوغسطين " ومذهبه الأخلاقي [١]:

أقام " أوغسطين " مذهبه الأخلاقي على أساس من العقيدة المسيحية ، التي أدخلت في مجال القيم ، قيماً أخلاقية جديدة ، فبدلاً من أن تضع الله في الطبيعة كما فعل أهل اليونان ، فإنها تجعله روحاً في الذات الإنسانية ، والمسيحي لا يبحث عن السعادة كما يفعل الإغريقي ، ولكنه يبحث عن الله ...

يقول القديس " أوغسطين " إننا قد نتجه إلى الله بالأدلة المجردة ، ولكن كل براهين إثبات وجود الله لا تشكل إلا باباً واحداً من أبواب الفلسفة . ونحن نحاول أن نجعل من الفلسفة كلها طريقاً يؤدي إلى الله ، ولكن هذا الطريق يجب أن نشقه في داخل ذاتنا [٢] .

والإنسان يجب أن ينطوي على ذاته ويتأمل في ذاته ، والخطيئة هي التي تدفع الإنسان إلى هذا التأمل والتفكير يجعله يشعر بوجوده ، يقول " أوغسطين " عندما أخطيء أشعر بوجودي [٣] .

---

(١) وقع اختيارنا على شخصية القديس أوغسطين لعدة أسباب من أهمها :

أ– للأثر العظيم الذي أحدثه هذه الشخصية في الديانة المسيحية .

ب– أنه لم يكن من آباء الكنيسة ورجال الدين فحسب بل ضم إلى جوار ذلك كونه فيلسوفاً أخلاقياً.

جـ – المحاولات التي قام بها من أجل التوفيق بين الدين والفلسفة وبيان أن الفلسفة هي أداة فهم الوحي .

د – الثقافات التي كان يمثلها ، قد جمع بين ثقافات متغايرة ، ومتباينة . كالمسيحية التي نشأ عليها ، ثم الثقافة اليونانية التي درسها وتعمق فيها ، وغير ذلك من ثقافات أخرى كاللاتينية . { أنظر : فلسفة العصور الوسطى : د. عبد الرحمن بدوي ، ص ١٥ ، ط دار النهضة العربية بدون تاريخ ، القيم الأخلاقية بين الفلسفة والعلم ، ص ١٠٩ ، د. فايزة أنور فكري ط دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٢ } .

(٢) أنظر كتاب : الإنسان والقيم – د / نازلي إسماعيل حسين ، ص ٢٠٨ القاهرة – المكتبة القومية ١٩٨٠م .

(٣) أنظر : المصدر السابق ، ص ٢٠٩ .

إن المعرفة العقلية في نظر " أوغسطين " : تمهيد للمعرفة الروحية ، وهي تساعد على تطهير النفس من المعرفة الحسية ، والعقل يبين للإنسان أن الحقيقة لا تأتينا عن طريق الحواس ، ولا من آراء الآخرين .

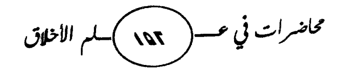
ومعنى هذا أن " أوغسطين " يرى أن الحياة السعيدة والغاية الأخلاقية هي النعيم في الله ، ومن اجل الله ، فالسعادة والحقيقة شيئان مترادفان ؛ لأن مصدرهما واحد هو الله ، كما أن الله مصدر الحقيقة والمعرفة فهو كذلك مصدر الأخلاق .

بيد أن الأخلاق عند " أوغسطين " ترجع كلها إلى مشكلة الخير والشر ، فالخير عنده هو السير على مقتضى القانون الإلهي ، أو الطبيعي ، أما الشر فهو مخالفة هذا القانون . ومن هنا نستخلص الحقيقة الوجودية ، للخير والشر ، فالخير شيء بالفعل ، أما الشر فلا يمكن أن يعد وجوداً حقيقياً بل هو سلب محض أي إن الشر هو سلب للخير ، وهذا يعني أن الخير شيء إيجابي وجودي ، أما الشر فهو نقصان أو عدم . ومن ثم نرى أن أوغسطين يرجع عن معتقداته الأولى في العصر الذي كان يؤمن فيه بالمانوية ، فبينما كان في تلك الفترة من حياته يقول : بأن الشر مبدأ للوجود ، ونراه بعد أن عرف المسيحية ، وبعد أن اتصل اتصالاً وثيقاً بالأفكار الأفلاطونية ، ويجعل الشر عدماً وسلباً للخير فحسب [1] .

والفضائل الأخلاقية – من وجهة نظر أوغسطين – ترجع كلها إلى فضيلة عليا واحدة ، هي فضيلة الحب ، حب الله ، أما الفضائل الأخرى مثل الحزم والعفة والشجاعة والعدالة ، فقد أرجعها أيضاً إلى الفضيلة الرئيسية

---

(١) انظر : القيم الأخلاقية بين الدين والعلم ، د. فايزة أنور ، ص ١١١ .



وهي حب الله ، ولذلك فهو يرى أن الفضائل إذا انقطعت صلتها بالله أصبحت رذائل ، فمن الخطأ أن يزعم بعض الأخلاقيين أن الفضائل تطلب لذاتها وليس من أجل غاية تقوم وراءها ، وبهذا أصبحت الفضيلة لا تطلب لذاتها – كما يقول الحدسيون – ولا من أجل نتائجها النافعة – كما يقول التجريبيون – لأنها تتمشى مع إرادة الله [١] .

ومن جانب آخر يفهم القديس أوغسطين الحرية على أنها الإرداة المطلقة فالإنسان الحر هو الذي يستطيع بمحض إرادته أن يرفض كل شيء ، فهو القادر على قول " لا " بدون إجبار أو قهر من الآخرين ، وهو بذلك يكاد يقترب من تعريف الوجوديين المحدثين للحرية ، إلا أنه في نفس الوقت لا يستطيع التوفيق بين هذا القول وبين الغاية أو الإرادة الإلهية الشاملة للكون ، ولذلك نراه يحاول الهرب من هذا الموقف قائلاً : " إن الأفعال الحرة كانت صورة من قبل باعتبارها حرة " [٢] .

وقصارى القول في هذا : إن أوغسطين يعتقد أن الفضل الإلهي هو الذي يعطي لهذه الإرادة فاعليتها ، والحب الإلهي هو الذي يعطي لها قدرتها وطاقتها ومن هنا كان الحب هو مصدر جميع القيم لذا جعله أوغسطينن هو القيمة الأخلاقية الأولى ، وما عداه من قيم أخرى فإنها تأتي بعده .

وهكذا يمكن أن يعد القديس أوغسطين مؤسساً لفلسفة الأخلاق في الفكر المسيحي بفضل آراءه التي تبلورت فيما بعد في أفكار الكمال الأخلاقي المرتبطة بفكرة الحب لله عند المفكرين المسيحيين [٣] .

---

(١) انظر : الفلسفة الخلقية ، د. توفيق الطويل ، صـ ١٥٢ – ١٥٣ ، دار النهضة العربية ، ط ٩ ، ١٩٩١م .

(٢) انظر : القيم الأخلاقية . د. فايزة أنور شكري ، ص ١١١ ، فلسفة العصور الوسطى . د. بدري ، ص ٣٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٢ .

ثانياً : الأخلاق في الإسلام [1].

إذا انتقالنا إلى الدين الإسلامي وجدنا نظاماً كاملاً متكاملاً يهتم بالأخلاق ويؤكد عليها ، وذلك من خلال دعوته إلى الحق والسعادة ، ويشمل ذلك كل القيم الأخلاقية التي لا يقوم صلاح الفرد والمجتمع إلا بها ، ومن بين هذه القيم الرحمة ، والعدل ، والعفو ، والإحسان ، والصبر ... الخ .

لذا كان الإسلام في تنظيمه الأخلاقي جامعاً بين الروحية والمادية فهو يهتم بالروح ومتطلباتها ، وكذا يهتم بالجانب المادي الذي به قوام الإنسان وحياته .

وقبل عرضنا للجانب الأخلاقي لأحد حكماء الإسلام وهو الفيلسوف المسلم " ابن مسكويه [2]" أرى أن من الأهمية الإشارة أولاً إلى أهم خصائص الأخلاق الإسلامية . فنقول وبالله التوفيق .

---

(١) ينبغي ملاحظة أن هناك فرقاً شاسعاً بين الأخلاق الإسلامية التي وردت في القرآن والسنة ، والأخلاق كما فهمها حكماء الإسلام . أمثال " ابن مسكويه وغيره " فالحديث عن الأخلاق في القرآن والسنة حديث عذب شاف وكامل لأنه تنزيل رب العالمين ، أما الحديث عن الأخلاق كما جاءت على لسان فلاسفة الأخلاق في الإسلام فهو لا يخلو من تأثر بثقافات كثيرة إسلامية وغير إسلامية ، لذا كان الحديث عن خصائص الأخلاق الإسلامية قاصداً الأخلاق الواردة في الكتاب والسنة ، أما الحديث عن الجانب الأخلاقي " لابن مسكويه " فهو عرض لنظريته في الأخلاق التي تأثر فيها بالقرآن والسنة ، والفلسفات اليونانية وغيرها .

(٢) آثرنا اختيار " ابن مسكويه " لعدة أسباب منها :

أ - عنايته الشديدة بهذه الناحية من التفكير .

ب - ارتباط اسمه بتاريخ الفكر الأخلاقي في الإسلام بحيث لا يمكن دراسة هذا الفكر دون دراسته .

ج - أن دراسته لهذا الجانب هو سبب ذيوعه وانتشار اسمه .

د - الأثر الذي أحدثه فيمن أتى بعده أمثال الغزالي ، نصير الدين الطوسي . وغيرهما .

سمات الأخلاق الإسلامية :

للنظام الأخلاقي في الإسلام سمات وخصائص تميزه عن غيره من المذاهب الأخلاقية البشرية ومن مميزات النظام الأخلاقي الإسلامي .

١ – أنه يمتاز بالشمول . فهو يتناول علاقة الإنسان بجميع ما يحيط به ، فهو يشمل العلاقة بين الإنسان وربه ويقنن العلاقة بين الإنسان ونفسه ويشمل علاقة الإنسان بمجتمعه بل إنه يتناول العلاقة بين الإنسان وعناصر الوجود حتى الحيوان والنبات والجماد ، فنرى فيه كيف أن امرأة تدخل النار في هرة عذبتها ونرى فيه كيف أن رجلاً يدخل الجنة لرأفته بكلب قام بسقايته ، ونرى فيه الأجر العظيم لمن أحيا أرض ميته ونرى فيه كيف تكسر ثورة إعجاب الإنسان بنفسه أمام حجر يزاحم لمصافحته وتقبيله أثناء الحج .

٢ – كذلك أيضاً من سمات الأخلاق الإسلامية أنها توازن بين العقل والعاطفة فتقنع العقل وتشبع العاطفة وترضي القلب والوجدان فما من خلق حث عليه الإسلام أو حذر منه يتعارض مع العقل المستنير أو يجافي القلب السليم [1] ومن ثم نجد القرآن الكريم يقول في حديثه عن النهي عن الغيبة :

﴿ ... وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2].

٣ – كذلك من سمات الأخلاق الإسلامية التعويل على جانبي المسئولية حيث إن نظام الأخلاق الإسلامي في حديثه عن المسئولية يقرر المسئولية الشخصية كما قال تعالى :

---

(١) أنظر : أخلاقنا . د.محمد ربيع الجوهري . صـ ٣٠ . ط دار الاعتصام ، وانظر : دراسات في العقيدة والأخلاق . لجنة من قسم العقيدة بجامعة الأزهر . صـ ٢٦٢ . مطبعة جامعة الأزهر .

(٢) سورة الحجرات الآية (١٢) .

﴿ ... كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (١) .

وكذلك أيضاً يقرر المسئولية الجماعية قال تعالى:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ... ﴾ (٢).

٤ – كذلك نجد من سمات قانون الأخلاق في الإسلام أنه لا يكتفي بالحكم على الأعمال الإنسانية الظاهرة بالخير والشر ، بالفضيلة أو بالرذيلة ، ولكنه يمتد إلى الحكم على النوايا والبواعث والمقاصد ومن ثم كان من أنواع الصدق المحمود الصدق في النية (٣) ولذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم مبيناً ما للنية من أثر في الفعل الخلقي " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى " (٤) .

٥ – كذلك من سمات الأخلاق الإسلامية الرقابة الإلهية وهذا النوع من الرقابة يختلف عن الرقابة في مصادر الأخلاق الأخرى حيث إن الرقيب في الأخلاق الوضعية مهما تنوع من ضمير أو قانون بشري أو غير ذلك فإنه يتسم بقصور علمه ويمكن التملص منه بيد أن الرقيب الذي يجب مراعاته في القانون الخلقي الإسلامي هو الله والذي يقول عن نفسه : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ (٥).

---

(١) سورة الطور الآية (٢١) .
(٢) سورة الأنفال الآية (٢٥) .
(٣) انظر : أخلاقنا . صـ٣١.
(٤) رواه الإمام البخاري في باب كيف كان بدء الوحي .
(٥) سورة غافر الآية (١٩) .

ويقول أيضاً : ﴿ ... وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [1] .

ويقول كذلك : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ [2]، فأين هـذه الرقابة المتسمة بالإحاطة والشمول من رقابة القوانين البشرية المتسمة بالحد والقصور .

٦ – كذلك من مميزات الأخلاق الإسلامية أنها تنظر إلى الإنسان على أنه مركب من جسد وروح ولكل منهما متطلباته فأخلاق الإسلام لا تجعل الجسد يطغى على الروح ولا الروح تطغى على الجسد [3] ، يقول تعالى : ﴿ ... وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ... ﴾ [4] ، ويقول تعالى : ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [5]

---

(١) سورة إبراهيم الآية (٣٨) .

(٢) سورة طه الآية (٧) .

(٣) انظر : أخلاقنا . صـ ٣٢ ، وانظر : دراسات في العقيدة والأخلاق صـ ٢٦٨ – ٢٧٠ .

(٤) سورة القصص الآية (٧٧).

(٥) سورة الأعراف الآيتان (٣١ ، ٣٢) .

ويقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [١] .

٧ – كذلك من سمات الأخلاق الإسلامية الثبات حيث إن الأخلاق الإسلامية ثابتة في جميع أدوار الإنسانية وتطورها مع الزمن تساير الحياة وتصلح لكل العصور فكم قامت عليها مجتمعات فاضلة في القديم مع الزمن كذلك تقوم عليها أصلح المجتمعات في العصر الحديث وإلى ما شاء الله ، والعلة في ذلك أن الأخلاق الإسلامية تنبثق عن العقيدة فلا تميلها مصلحة ولا تسايرها المنفعة فإذا انتهت المصلحة أو تحققت المنفعة انتهى الخلق وتركت القيمة بل هي أخلاق ثابتة وقيم لا تتغير لأن المسلم يتلقى الأوامر والنواهي من الله سبحانه وتعالى [٢] فالمنكر منكر منذ فجر الإنسانية وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فأصول الأخلاق والشرائع لا تختلف من رسالة إلى أخرى .

٨ – كذلك من مميزات النظام الأخلاقي في الإسلام الصلاحية العامة ، فهو صالح لكل عصر من العصور ولكل مجتمع من المجتمعات وذلك لما فيه من السهولة واليسر والتكليف بالوسع ورفع الحرج [٣] . ولهذا كان قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ... يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ... ﴾ [٤] ، وأيضاً قوله تعالى : ﴿ ... فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ

---

(١) سورة الرعد الآية (٢٨).
(٢) انظر : دراسات في العقيدة والأخلاق . لجنة من قسم العقيدة بجامعة الأزهر . صـ ٢٦٥.
(٣) انظر : أخلاقنا . صـ ٣٣ .
(٤) سورة البقرة الآية (١٨٥).

فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] ، وأيضاً نجد قوله تعالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ... ﴾[2] ، وكذلك نجد قوله تعالى : ﴿ ... وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ... ﴾[3] .

٩ – كذلك من سمات الأخلاق في الإسلام أنها تجعل الجزاء لكل من الأخيار والأشرار نوعين ، نوعاً في الدنيا ونوعاً في الآخرة [4] .

أما جزاء الأخيار في الدنيا فيشير إليه قول الله تعالى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [5] ، وقوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) [6] ، وقوله تعالى : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً) (وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ [7] ، وأما جزاؤهم في الآخرة فيشير إليه قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) ، (جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) [8] ، ونجد أيضاً قوله تعالى : (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) [9] .

---

(١) سورة النحل الآية (١١٥).

(٢) سورة التغابن الآية (١٦).

(٣) سورة الحج الآية (٧٨).

(٤) انظر : أخلاقنا . صـ ٣٤ .

(٥) سورة النحل الآية (٩٧) .

(٦) سورة الأعراف الآية (٩٦) .

(٧) سورة الطلاق الآيتان (٢-٣) .

(٨) سورة البينة الآيتان (٧-٨) .

(٩) سورة الحاقة الآيات (٢١ : ٢٤) .

وأما جزاء الأشرار في الدنيا فيشير إليه قوله تعالى : (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)[١] ، وأما جزائهم في الآخرة فيشير إليه قوله تعالى : (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً)[٢] ، كذلك نجد قوله تعالى : (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ)[٣] .

هذه هي بعض الخصائص التي يمتاز النظام الأخلاقي في الإسلام نصافح فيها الموضوعية ونقرأ فيها الملائمة للطبيعة البشرية ، وهي لهذه السمات تعلو على كل المذاهب الأخلاقية التي لا تزال تتخبط في محاولتها الوصول إلى المقياس الخلقي الثابت فتنجح حيناً ، وتفشل في أحيان أخرى كثيرة .

الجانب الأخلاقي عند ابن مسكويه :

في دراستنا للجانب الأخلاقي عند ابن مسكويه نلمح أمراً مهماً وهو عرضه له من جانبين مختلفين أحدهما نظري ، والأخر عملي .

---

(١) سورة النحل الآية (١١٢) .
(٢) سورة الكهف الآية (٢٩) .
(٣) سورة الحاقة الآيات (٣٠ : ٣٢)

أولاً : الجانب النظري :

١ - النفس

يعطي ابن مسكويه أهمية خاصة للنفس فهو يرى أن مشكلة الأخلاق هي مشكلة النفس فالعلاقة بينهما واضحة .

فنحن لا نستطيع الحديث عن الأخلاق إلا بعد الحديث عن النفس ، من حيث قواها وطبيعتها وعلاقتها بالجسم .

فهو يقول في مقدمة كتابه تهذيب الأخلاق " غرضنا في هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ، ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمي ، والطريق في ذلك أن نعرف أولاً نفوسنا ما هي ؟ وأي شيء هي ؟ ولأي شيء أوجدت فينا ؟ أعني كمالها وغايتها وما قواها وملكاتها التي إذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه الرتبة العلية .وما الأشياء العائقة لنا عنها وما الذي يزكيها فتفلح . وما الذي يرسبها فتخيب " [(١)].

قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾ [(٢)].

والمتأمل فيما سبق يستطيع أن يدرك مدى عنايتها بالنفس وكيف أن العلاقة بينها وبين الأخلاق وثيقة . بالإضافة إلى رغبته في دراسة الأخلاق على أساس علمي فلهذا بدأ بدراسة النفس على اعتبارها أنها مقدمة ضرورية لدراسة الأخلاق .

---

(١) تهذيب الأخلاق صـ ٩ .

(٢) سورة الشمس الآيات (٧ : ١٠) .

تعريف النفس :

النفس عنده جوهر ليس بجسم ولا جزء من جسم ، ولا عرضاً [١].

والمتأمل في هذا التعريف يستطيع أن يدرك الأثر اليوناني ، فقد تأثر ابن مسكويه بأفلاطون في حقيقة النفس [٢]وهذا ما أكده كثير من الباحثين .

فـيذكر الدكتور / محمد يوسف موسى أن ابن مسكويه لم يشذ في دراسته للنفس وقواها ، وحقيقتها عن رأي فلاسفة اليونان لا سيما أفلاطون وأرسطو [٣].

طبيعتها :

أمـا عن طبيعتها فهي تخالف طبيعة الجسم في خواصه وأحكامه كما أنهـا تخالفـه مـن ناحية غايته ، فلها من الغايات ما يختلف مع ما يتجه إليه الـبدن ، فهـي تشتاق إلى ما هو ليس من طباع البدن فضلاً عن ذلك فهي ليست حاسة من الحواس [٤].

العلاقة بينها وبين الجسم :

على الرغم من اختلاف طبيعة النفس عن الجسد إلا أنها عنده ترتبط به ارتباطاً وثيقاً . فهي التي تدبر أمره ، وتصرف حواسه وما يصاب أحدهما ينسحب بالضرورة على الأخر [٥].

---

(١) تهذيب الأخلاق صـ ١٣ .

(٢) انظر : النفس عند فلاسفة الإسلام في المغرب ومدى التأثر بالفكر اليوناني رسالة ماجستير إعداد الباحث / نظير محمد عياد صـ ٦٨ . كلية أصول الدين بالمنصورة .

(٣) انظر : فلسفة الأخلاق . د . محمد يوسف موسى صـ ٨٤ . مكتبة الخانجي ط ٣ / ١٩٦٣م.

(٤) انظر : تهذيب الأخلاق صـ ١٣ .

(٥) انظر : فلسفة الأخلاق عند ابن مسكويه د . عثمان عيس صـ ٣٧ ، ٣٨ . نشر مكتبة الأزهر ط ١ / ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦م .

قوى النفس :

أشرنا فيما سبق إلى أمرين :

الأمــــر الأول : أن النفس متميزة عن الجسم وأنها مستقلة عنه ومع هذا فإنها تؤثر فيه وتتأثر به هذه النفس باقية لا تفنى بفناء الجسم .

الأمــــر الــــثاني : هو أن الأخلاق مرتبطة بالنفس الإنسانية وأن الإنسان يستطيع أن يفعل الخير ويستطيع أن يفعل الشر .

على ضوء ذلك نقول : إذا كانت الأخلاق مرتبطة بالنفس الإنسانية ومن حيث أن النفس مصدر السلوك الإنساني الذي يتصل بالخير والشر فإن هذا معناه أن الخير والشر يردان إلى هذه النفس .

كمـــا أن معـــناه أننا نستطيع أن نميز في داخل النفس الإنسانية بين قوى للخير وأخرى للشر. إذ إنه يصعب على المرء أن يدرك أو يتصور أن ما عنه وبه يصدر الفعل الخير هو بعينه ما يصدر عنه أو به الفعل الشرير .

نــــريد أن نقــــول : إن الخير يصدر عن الإنسان بجهة غير تلك التي يصدر عنها الشر ، وللخير قوى وللشر قوى ، ولما كان الخير والشر يردان إلى الــــنفس فمــــن الضروري البحث عن قوى النفس وذلك كي نفسر من خلالها الأفعال الخيرة ، والأفعال الشريرة .

وعــــند استعراضــــنا لرأيه في قوى النفس ووظائفها نراه يذهب فيه مذهب فلاسفة اليونان [١].

فهو يرى أن للنفس قوى ثلاث :

---

(١) انظر : النفس وقواها عند فلاسفة الإسلام في المغرب ومدى التأثر بالفكر اليوناني صـــــ ٦٩ وما بعدها رسالة ماجستير إعداد الباحث / نظير محمد عياد / ١٤٢١هـــ - ٢٠٠٠م .

أ – القوة الناطقة   ب – القوة الغضبية   جـ – القوة الشهوانية

وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل

فللنفس عنده قوى ثلاث :

(١) القوة التي بها يكون الفكر والتمييز والنظر في حقائق الأمور وهذه القوى يسميها مسكويه القوة الملكية ويرى أن آلتها الدماغ وتسمى بالقوة الناطقة .

(٢) القوة التي بها يكون الغضب والنجدة والاقدام على الأهوال والشوق إلى والتسلط والترفع وضروب الكرمات . ويسمى مسكويه هذه القوة " السبعية " ويرى أن آلتها من البدن " القلب " ، وقد يسميها بالقوة الغضبية .

(٣) القوة التي بها تكون الشهوة وطلب الغذاء والشوق إلى الملاذ التي في المآكل والمشارب والمناكح وضروب اللذات ، ويسمى مسكويه هذه القوة " البهيمة " ويرى أن آلتها التي تستعملها من البدن " الكبد " ، وقد تسمى بالقوة الشهوانية .

وقد استفاد ابن مسكويه من فلاسفة اليونان لاشك في ذلك ، ويشبه ابن مسكويه . حالة النفس في قواها المختلفة بإنسان يركب دابه وتقود كلباً أو فهذا للقنص ، فإن كان إنسان من بينهم هو الذي يروض دابتة وكلبه فلا شك في رغد العيش فالقوة العاقلة هي الحاكمة ، وإن كانت

البهيمة هي الغالبة ساءت حال الثلاثة وأصيبوا جميعاً بالمتاعب ، وإن قوى الكلب ولم يطع صاحبه لحق الضرر الجميع وهذه هي النفس الغضبية [١].

لهذا نراه يؤكد على أن النفوس تتعاون فيما بينها من حيث الرتبة والمكانة " فأدناها النفس البهيمة ، وأوسطها النفس السبعية ، وأشرفها النفس الناطقة ، والإنسان إنما صار إنساناً بأفضل هذه النفوس ، أعني الناطقة وبها شارك الملائكة ، وبها باين البهائم " [٢].

وإذا كان الأمر على هذا النحو فالعاقل هو من يرعى نفسه العاقلة ، ولا يهملها ويتركها لشهوته فتستولى عليه .

٢ - الخلق :

عرف ابن مسكويه الخلق بأنه " حال للنفس داعية لها أفعالها من غير فكر ولا روية وهذه الحال تنقسم إلى قسمين منها ما يكون طبعاً من أصل المزاج ... ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والترتيب " [٣].

والمتأمل في هذا التعريف يلمح أن ابن مسكويه جعل من الخلق صفة راسخة للجانب النفسي من الإنسان ، وتصدر عنها الفعل من غير كلفة أو مشاقة ...

فالإنسان يولد ولديه الاستعداد بأن يكون صاحب خلق حسن أو قبيح ويتوقف ذلك على عوامل أخرى تحيط به ، كالبيئة والوراثة والعادات والتقاليد . فالإنسان يولد ولديه استعداد للخير والشر "

قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ ﴾ [٤].

---

(١) انظر : تهذيب الأخلاق صـ ٦٣ .
(٢) نفس المصدر صـ ٥٦ .
(٣) انظر : تهذيب الأخلاق صـ ٤١ .
(٤) سورة الشمس الآيات (٧ : ١٠) .

واكتساب النفس للخلق يتم من خلال التأديب والنصح والموعظة والإرشاد ...

وفي هذا رد على الرأي القائل بثبات الأخلاق وعدم تغييرها . فالواقع على خلاف ذلك ، كما أن في القول بثباتها إبطال لقوة العقل والتمييز ورفض السياسات كلها وترك الناس همجاً وترك الأحداث دون تعليم أو إرشاد .

فكل خلق ممكن تغيره ، وإذا كانت الأخلاق تتغير فإن الناس يختلفون في درجاتهم لقبول التخلق لا سيما لدى الأطفال . وإذا أهملت الطباع ولم ترض بالتأديب نشأ كل منا على ما نشأ عليه سواء أكانت أخلاق وطباع حميدة أو ذميمة [1].

٣ – الفضيلة :

عرف ابن مسكويه الفضيلة بأنها : " هيئة نفسانية تصدر عنها الفضائل في يسر وسهولة ... وينبغي أن يعلم أن هذه الهيئة النفسانية هي غير الفعل ، وغير المعرفة ، وغير القوة .

أما أنها غير الفعل فلأنه يقع على غير هيئة نفسية كمن يعمل الشجاعة وليس بشجاع ، وأما أنها غير المعرفة وغير القوة لأنهما يقبلان الضدين معاً الفضيلة والرذيلة ، فالعلم بإحداهما عين العلم بالأخرى .

بخلاف الهيئة النفسية فإن ما تقبل أحد الضدين غير ما تقبل ضده ، وذلك مثل الشجاعة فإنها غير هيئة الخير ، وهيئة العفة غير هيئة الشره ، وهيئة العدالة غير هيئة الجور [2].

---

(١) انظر : تهذيب الأخلاق صـ ٤١ :٤٥٠ .

(٢) انظر : تهذيب الأخلاق صـ ١٣٧ ، ١٣٨ .

وحقاً ما رأه ابن مسكويه ، فلا بد في الفضيلة من الأصالة النفسية العميقة التي يكون معها الثبات والدوام ، الثبات الذي لا يتغير مهما تبدلت الظروف والأحوال فهو فاضل في فقره وغناه ، وعسره ويسره فالفضيلة إذا عدمت هذه الأصالة كانت عرضة للتغير بتغير غاياتها [١].

ويذهب ابن مسكويه إلى أن الفضائل الخلقية أربعة وهما :

الحكمة ، والعفة ، والشجاعة ، والعدالة .

والعلاقة بين هذه الفضائل وقوى النفس علاقة وثيقة فالحكمة فضيلة النفس العاقلة ، والعفه فضيلة النفس البهيمة ، والشجاعة فضيلة النفس الغضبية وإذا حصل انسجام بين هذه القوى الثلاث وأدت كل منها عملها ظهرت فضيلة العدالة .

وإذا كانت أمهات الفضائل أربعة فإن كلاً منها يندرج تحتها فضائل أخرى فالحكمة مثلاً يندرج تحتها فضائل منها : الذكاء ، وسرعة الفهم ، وسهولة التعلم . أما العفة فيندرج تحتها الحياء والسخاء والوفاء ، والشجاعة تحتها الحلم والشهامة ، والعدالة يندرج تحتها الألفة وحسن القضاء والصداقة [٢].

ويذكر ابن مسكويه أن كل فضيلة وسط بين رذيلتين فالشجاعة وسط بين الجبن والتهور ، والعدالة وسط بين الظلم والانظلام ، والسخاء وسط بين التبذير والتقتير .

---

(١) انظر : فلسفة الأخلاق عند ابن مسكويه . د . عثمان عيس صـ ٥٠ .

(٢) انظر : تهذيب الأخلاق صـ ٢٦ : ٣٦ .

والوسط الذي يذكره هنا ابن مسكويه وسطاً اعتبارياً ، وليس هو الوسط الذي نراه في الحساب ، بمعنى أنه يزيد وينقص بحسب اختلاف الأحوال والأوقات ، ولذا فهو يحتاج في إدراكه إلى جهد كبير [١].

٥ – الخير :

الخير عند ابن مسكويه هو المقصود من الكل وهو الغاية الأخيرة ، وقد يسمى الشيء النافع في هذه الغاية خيراً ، فالخير إذا يتشوقه الكل ويقصده الناس جميعاً بما هم ناس ، وهو الخير العام وننظر إلى الخيرات فنجدها تنقسم لاعتبارات كثيرة .

فمنها خيرات شريفة شرفها من ذاتها ، ومنها ما هي ممدوحة مثل الفضائل والأفعال الإرادية الجميلة ، ومنها ما هي بالقوة ، مثل التهيؤ والاستعداد لنيل الأشياء التي تقدمت .

ومن جهة أخرى تكون الخيرات إما غايات تامة كالسعادة ، وغير التامة كالصحة . والخيرات منها ما هو خير لجميع الناس ، ومن جميع الوجوه وفي جميع الأوقات ، ومنها ما ليس كذلك وقد تنقسم الخيرات إلى محسوسة ومعقولة [٢].

٥ – السعادة :

تعد السعادة هي الغاية أو الخير الأسمى عند كثير من فلاسفة الأخلاق وابن مسكويه يرى هذا حيث ذهب إلى أنها تمام الخيرات وغاياتها ، والتمام هو الذي إذا بلغنا إليه لم نحتاج معه إلى شيء آخر . فالسعادة هي أفضل الخيرات ، ولكن نحتاج في هذا التمام الذي هو الغاية القصوى إلى

---

(١) انظر : تهذيب الأخلاق صـ ٣٤ : ٣٦ .

(٢) انظر : تهذيب الأخلاق صـ ٨٧ : ٩٠ ، وانظر : فلسفة الأخلاق . د . عثمان عيش صـ ٨٢ .

سعادات أخرى في البدن ، وفي خارجه . وهذه السعادة يصل إليها بالشروط التالية :

١- صحة البدن وسلامة الحواس .
٢- الثروة والأعوان ليفعل الخيرات ويستحق الثناء .
٣- حسن السيرة بين الناس .
٤- أن يكون ناجحاً في كل أمور حياته .
٥- أن يكـــون جيد الرأي ، صحيح الفكر ، سليم الاعتقادات في دينه ودنياه .

فمتى اجتمعت له هذه الأقسام ، فهو السعيد الكامل [١].

ثانياً : الجانب العملي :

لم يكـــتف ابن مسكويه بالوقوف في فلسفته الأخلاقية على الجانب الـــنظري بل إنه انتقل إلى الجانب العملي لأنه رأى أن كمال النفس وتمامها يكون من خلال الجانبين معاً ، ويمكن للباحث الوقوف على الجانب العملي عند ابن مسكويه من خلال ما يلي :

(١) تقويم النشء وغرس الفضائل فيه :

وبمناســـبة الحديث عن الأخلاق عند مسكويه فلا بد من أن نعرض لرأيه في ترتيب الصبيان وكيفية توجيههم وتعليمهم الفضيلة وإعدادهم خير إعداد ذلك أن معظم الرذائل التي يرتكبها المرء إنما كانت نتيجة تربية فاسدة ساهمت في فسادها الأسرة والظروف الثقافية والاقتصادية .

---

(١) انظر : تهذيب الأخلاق صـــ ٩٠ ، ٩١ .

يرى مسكويه أننا ينبغي أن نحاسب الطفل وأن ننبهه على أخطائه ابتداء من اللحظة التي يستحي منا فيها ويستحي من بعض أفعاله . فالحياء دليل على بزوغ العقل لدى الطفل . ونحن لا نستطيع في الواقع أن نؤدب الطفل وأن ننشئه صالحة إلا عن طريق العقل . فوجود الحياء لدى الطفل في فترة مبكرة من حياته دليل على نضجه العقلي المبكر من جهة ودليل على أن هذا الطفل قد أدرك القبيح والحسن وهو بإدراكه لهذا وذاك بدأ يستحي منا ومن نفسه من جهة أخرى ، وهذا الحياء من شأنه أن يجعل الطفل يتجنب الأفعال التي يخجل من ارتكابها .

ثم يذكر ابن مسكويه : أن النفس الإنسانية مهيأة للإدراك والمعرفة . فهي أشبه بصفحة بيضاء لم تنقش بعد بصورة ولا لها رأي وعزيمة تحليها من شيء إلى شيء . فإذا نقشت بصورة وقبلتها نشأت عليها واعتادها [1].

وأول ما ينبغي مراعاته في ترتيب الصبيان :

أ – البيئة التي ينشئون فيها : فمن الأهمية بمكان أن يحال بينهم وبين قرناء السوء ، وحول هذا المعنى يذكر مسكويه إنه من الضروري إبعادهم عن مخالطة الأضداد الذين يفسدون بالمقارنة وبالمداخلة .

ب – تلقينه أوامر الشريعة وتعاليم الدين فالشريعة " تقوم الأخلاق ، وتعودهم الأفعال المرجية ، وتعد نفوسهم لقبول الحكمة ، وطلب الفضائل والبلوغ إلى السعادة الإنسية بالفكر الصحيح ، والقياس المستقيم ، وعلى الوالدين أخذهم بها وبسائر الآداب الجميلة " [2].

---

(١) انظر : تهذيب الأخلاق صـ ٦٧ .
(٢) انظر : تهذيب الأخلاق صـ ٤٥ .

جـ – إبعادهم عن محيط الأسرة من آن لآخر : وغرضه من هذا تعويد النشء على الشجاعة والعمل والاعتماد على النفس . فقد كان ملوك الفرس الفضلاء يفعلون ذلك خوفاً عليهم من التأثر بالبيئة التي نشئوا فيها ، وكانوا يـنفذونهم مع ثقاتهم إلى نواح بعيدة ، يتولى تربيتهم أهل الخشونة والجفاء [١].

د – الاهتمام بتثقيف الطفل : فالثقافة في نظره إحدى طرق التربية والتهذيب لهذا يجب التركيز عليها فينبغي أن نطالب الصبي بحفظ محاسن الأخبار والأشعار التي تجرى مجرى ما تعوده بالآداب . وأن تجنبه النظر في الأشعار السيئة الرديئة ، وما فيها من ذكر العشق وأهله ، فإن هذا الباب مفسدة للأخلاق .

ويسوق ابن مسكويه حيلة من الأمور التي تتعلق بتربية الصبيان يرى أنها لا بد منها . وهذه الأمور تتعلق بالمأكل ، والملبس ، وطلب العلم . والمعاملة مع الغير .

ففيما يتعلق بالمأكل ينبغي لنا أن نؤاخذه على اشتهائه ونزوته المفرطة نحو المآكل والمشرب والملابس الفاخرة ، وأن نحبب لديه مجانبة الهوى ومحاربة النفس . ونوضح له أن من شيمة الرجال العظام الترفع عن الحرص على الأكل الشهي . فلا ينبغي أن تكون معدته أو بدنه الشغل الشاغل أو هو كل همه .

وقد اهتم مسكويه كثيراً بأدب المطاعم على حد تعبيره حيث عاد فخصص له قسماً كبيراً من فصل عقده لهذا الغرض ومن جملة ما قال في هذا

(١) انظر : تهذيب الأخلاق صـ ٦٨ ، ٦٩ .

الصدد أننا ينبغي أن نوضح للنشء أن الأطعمة إنما تراد للصحة لا اللذة . وأننا ينبغي أن نتناول سائر الأطعمة على هذا الأساس ،وعلينا أن نعرف الطفل أن الأغذية شبيهة بالأدوية حيث نداوي بها الجوع والألم الحادث عنه ولا نتناولها للذة ولا نستكثر منها للشهوة .

ولا ينبغي لنا أن نأكل لكي نلتذ بالأكل ولكنا نأكل لكي نعيش ونؤدي مهمتنا التي خلقنا من أجلها [١].

أما فيما يتعلق بالملبس ، فينبغي ألا يكون الملبس كل شيء لأن المراد بطانه لا بمظهره ، فينبغي أن يؤخذ بالحزم في ملبسه ، فالأحسن بأهل النبل والشرف اللباس الأبيض وما أشبهه ، أما الملابس المنقوشة فالأولى بها النساء.

أما فيما يتعلق بمعاملاته مع غيره فلا يدمن الالتزام بجملة من الآداب النافعة ، وفي سبيل ذلك لابد من طبع القيم والمبادئ ، والمثل العليا ، وأن نحثه دائماً على حب الكرامة والاعتزاز بالنفس ، وينبغي لنا أن نذم أمامه الأشرار وأن نمدح الأخيار ، مع تشبيهنا الأشرار بالحيوانات الشرسة وتصويرنا له الأخيار بصورة جميلة [٢].

(٢) المحافظة على الصحة :

النفس تمرض كما يمرض البدن تماماً . فالنفس قوة إلهية غير جسمانية ومع هذا تمرض بعدة أمراض منها : العضب ، والحزن ، والعشق ، والشهوة الهائجة ، وهذه الأمراض لا بد لها من علاج ، وعلاجها يكون على النحو التالي :

---

(١) انظر : تهذيب الأخلاق صـ ٦٩ ، ٧٠ .
(٢) انظر : تهذيب الأخلاق صـ ٦٨ ، ٦٩ .

أ – مجالسة الصالحين وعدم مجالسة سواهم ، فيحذر من مجالسة أهل الشر والمجون ، والإصغاء إلى أخبارهم .

ب – أن يلتزم وظيفة الجزء النظري والعملي ، فلا يسوغ له الإخلال بهما البتة .

جـ – الحذر من ملابسة رذيلة أو مساعدة رفيق عليها أو مخالفة صواب ، ولا يستحقرن شيئاً مما يأتيه من صغار السيئات ، ولا يطلبن رخصة فيها .

د – معرفة عيوب نفسه ومحاولة تقويمها .

هـ – عليه التشبه بالملوك الموصوفين بالحزم فإنهم يستعدون للأعداء بالعدة والعتاد ، ولو تخلوا عن ذلك حلت بهم المصائب .

و – أن يحفظ نفسه عند ثورة الغضب ، وأن يحفظ لسانه وأن يحتمل امرأته [1].

وهكذا يرسم ابن مسكويه منهجاً فريداً في تربية النشء ، جمع فيه بين دراسته للنفس وبين دراسته لعلم الأخلاق ، ليخرج لنا في النهاية بهذا المنهج .

وبناء على ما سبق عرضه يستطيع الإنسان أن يحافظ على صحته النفسية الأخلاقية ، وإذا تحقق له ذلك فعليه أن يعلم غيره حتى يسعد مثله بالفضيلة .

---

(١) انظر : تهذيب الأخلاق صـ ١٨٥ : ١٩٨ .

(٣) علاج النفس المريضة :

من المعلوم أن النفس تنتابها عدة أمراض ولذا اهتم ابن مسكويه برسم طريق أمثل لعلاجها يتلخص في الوقوف على معرفة سبب المرض وعلاجه .

ولما كان المقام لا يستوعب كل ما ذكره ابن مسكويه فإنا سنشير إلى عدة نماذج ندلل به على صحة ما قلناه .

✔ الخوف يحدث من توقع مكروه ، وانتظار محذور وعلى رأس ما يسبب الخوف الموت ، وعلاجه يكون تيقن المرء من حقيقته ، فيصل إلى الراحة [١].

✔ الحزن فيعرض لعقد محبوب أو فوات مطلوب ، وعلاجه عدم اقتناء ما إذا فقد حزن عليه [٢].

وبعد فقد كان هذا عرض لآراء مسكويه الأخلاقية ، اتضح فيه دقته وابتكاره ، على الرغم من تأثره بغيره من فلاسفة اليونان والإسلام . ومحاولة التوفيق والتلفيق بعض الأحيان إلا أن هذا لا ينكر فضله ، فهذه الآراء بمثابة علامات عريضة ، خطها مسكويه في تربية الطفل وتهذيب أخلاقه ، والتي اتضح فيها مدى فهمه للنفس وأمراضا ولبعض علاجها .

---

(١) انظر : تهذيب الأخلاق صـ ٢١٥ : ٢٢٨ .

(٢) لمزيد من الوقوف على أمراض النفس وعلاجها أنظر: تهذيب الأخلاق صـ ٢٠١ وما بعدها.

المبحث الرابع : الأخلاق في العصر الحديث

بعد أن عرضنا للجانب الأخلاقي في العصور الوسطى ننتقل الآن لعرض الجانب الأخلاقي في العصر الحديث .

تعددت الاتجاهات الأخلاقية في العصر الحديث فمنهم من أساسها على أساس ديني ، ومنهم من أقامها على أساس من علم النفس أو علم الحياة ومنهم من أقامها على أساس من علم الاجتماع وهذه الاتجاهات يمكن حصرها فيما يلي :

١ – أخلاق ما بعد الطبيعة ومن أشهر ممثليها ديكارت ، وسبينوزا .

٢ – أخلاق الواجب ومن أشهر ممثليها كانت .

٣ – الأخلاق النفسية ومن أشهر ممثليها هوبز ، وبنتام .

٤ – الأخلاق الحيوية ومن أشهر ممثليها سبنسر ، ونيتشة .

٥ – الأخلاق الاجتماعية ومن أشهر ممثليها أوجست كونت[١] .

وسوف يقتصر الحديث على الأخلاق الاجتماعية كما جاءت عند كونت وذلك لعدة أسباب أعرض لها على النحو التالى :-

١- أن هذه الفلسفة التى صاغها أو جست كونت كانت بمثابة مقدمة للفلسفة التى أتت بعدها، كما أنها كانت بداية للمادية فى القرن التاسع عشر.

فقد "أعلنت فلسفة "كانت" عن نفسها بأنها مقدمة تمهيدية لكل ما يجئ فى المستقبل من أبحاث فى الميتافيزيقا، وكانت بعمد طعنة لطريقة التفكير التقليدى، وبغير عمد ضربة مؤذية للميتافيزيقا كلها" [٢].

---

(١) انظر : مقدمة في علم الأخلاق د . محمود زقزوق صـــ ٥٥ : ٥٩ .

(٢) قصة الفلسفة. ول ديورانت صـــ ٤٥٢ . ترجمة فتح الله محمد المشعشع. مكتبة المعارف بيروت ط٥. ١٤٠٥ / ١٩٨٥م.

٢- إن هذه الفلسفة حصرت إيمانها على المحسوس فقط ، وهذا ما تقول به الفلسفات المادية الأخرى.

٣-إن هذه الفلسفة كان لها أثرها الواسع على المجتمع الأوربي؛ ففى إنجلترا ظهرت الوضعية فى ثوب جديد سمى "بالوضعية المحدثة" ، كما ظهرت الفلسفة الوضعية فى ألمانيا فى ثوب جديد هو النقدية التجريبية، ثم ظهرت الفلسفة الوضعية فى ثوب جديد هو الوضعية المنطقية والتى تعتبر جوهر فلسفة العلم الوضعية [1].

فقد اعتمدت الوضعية المنطقية على وضعية أوجست كونت فى الاتجاه التجريبى، وتبدو العلاقة وثيقة بينهما من خلال حصرهم الوجود فى المحسوس، وجعل التجربة مصدراً للمعرفة.

٤- إن هذه الفلسفة كانت سبباً قوياً فى ظهور ديانة الإنسانية ، فقد أخذت بعض المجتمعات مذهب كونت الإنسانى، وحولته إلى ديانة إنسانية عرفت باسم "دين الإنسانية".

جـ- الأخلاق عند أوجست كونت.

من المعلوم أن الفلسفة الوضعية رفضت كل تفكير ميتافيزيقى، فقد استبعدت كل بحث عن العلل والغايات، واقتصرت على الواقع المحسوس ، وقد تبنت هذا الموقف فى سائر اتجاهاتها ، وحاولت تطبيقه على الأخلاق ، فقد رأت أن الأخلاق شأنها شأن سائر العلوم الأخرى قد مرت بالمراحل الثلاث اللاهوتية ، والميتافيزيقية ، والواقعية والمرحلة الأخيرة هى التى تنشأ عنها الأخلاق الوضعية، تلك الأخلاق التى ردها أصحابها إلى قوى خارجة

---

(١) انظر: الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر جان فال صـ ١٠٣-١٠٤ ، الفلسفة الحديثة عرض ونقد د. أحمد رمضان صـ ٥١٦ - ٥٢٠. مكتبة الإيمان بالمنصورة.

عنها، فهم يرفضون أن تؤسس الأخلاق على الذات الفردية من جهة، وعلى المجهول والمطلق من جهة أخرى، ولما كان هدف هذه الفلسفة هو إصلاح المجتمع من الفساد المادى، والاضطراب المعنوى الذى سيطر عليه لجأت إلى الأخلاق فالمجتمع لا يستقيم بغيرها.

"ولكن "كونت" كان يضيق بمذاهب سابقيه من الأخلاقيين، ولا يرضيه اتجاه الديانة المسيحية بالوضع الذى بدا فى عصره" [١] فالأخلاق المسيحية "خير ما فيها فى نظرة أنها أقرت الإيثار حين طالبت معتنقيها بأن يحب غيره كما يحب نفسه، وحثه على أن يحسن إلى المحتاج ويمد يد العون إلى الضعيف، ونفرته من الأثرة التى اعتبرتها أم الرذائل، ولكن "كونت" مع هذا قد أخذ عليها أنها جمدت والعالم يجرى فى وحاب العلم، إذ ارتبطت بالكاثوليكية التى تعثرت فى مسايرة التقدم العلمى، ومتابعة ما يقتضيه مناهج البحث العلمى ، ثم ما لبثت أن جمدت وتصدت دفاعاً عن وجودها لمقاومة التقدم وعرقلة سيره، ومن هنا نشأ النزاع الذى أتى على الأخلاق المسيحية فراحت هذه ضحية الكاثوليكية وجمودها" [٢].

لهذا رفض "كونت" اعتبار المسيحية أساساً لمذهبه الأخلاقى ، وعمل على إقامتها بناء على أسس مذهبه الخاصة به، فتراه يرفض الميتافيزيقا بكل ما يتصل بها، وانتهى "كونت" إلى إقامة علم أخلاقى وضعى قوامه إسعاد الإنسانية، وشعاره البعد عن التفكير الميتافيزيقى والنزوع إلى الحياة الاجتماعية.

---

(١) فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها د. توفيق الطويل صـ ٢٦٩ دار الثقافة للنشر والتوزيع ط٥ ١٩٨٥م.

(٢) نفس المصدر صـ ٢٧٠.

"وقد عالج "كونت" الأخلاق فى الفصل الأخير من علم الاجتماع منطلقاً من قانون التقدم العاطفى، وهو أحد قوانين علم الاجتماع المتحرك وفحوى هذا القانون أن الفرد ينتقل من شئ من الغيرية، ولا تزال الغيرية تتقدم حتى تسود سيادة تامة. فمراحل نمو الغيرية عبارة عن اتحاد الأفراد فى الأسرة، واتحاد الأسرة لأجل الحرب، وتعاون الجميع لازدهار الصناعة" [١].

فالأخلاق عنده تعنى الشعور بالآخرين، وعدم الاهتمام بالمصلحة الشخصية وبهذا تكون الخاصة الخلقية عنده تتكون من عواطف تلقائية تتحول إلى حالات وجدانية عائلية واجتماعية، وبذلك تكون الأخلاق عنده غريزة طبقاً لجذورها الحيوانية، وتصبح عقلية فى تطورها الإنسانى [٢] ويمكن إجمال خصائص فلسفته الأخلاقية فيما يلى:

١- أنها أخلاق وضعية :

فقد جعل كونت من العلم الوضعى أساساً لها، ولهذا فهى تحقق صفاته الجوهرية وذلك لأمرين:

أ- أنها فلسفة حقيقية فهى لا تقوم على الخيال بل على الملاحظة.

ب-نظرتها للإنسان فهى لا تنظر إليه على النحو الذى يتخيل وجوده عليه، بل على النحو الكائن بالفعل[٣].

٢- أنها فلسفة تجريبية :

فهى فلسفة لا تعتمد التجارب السابقة التى قدمتها البشرية، ولكن تعتمد على الأدلة التى برهنت بها الإنسانية على وجود ميولها وبواعثها

---

(١) الفكر المادى د. محمود عثمان صـ ٩٥.

(٢) انظر: الأخلاق بين الفلاسفة وحكماء الإسلام د. محمد مصطفى حلمى. صـ٧٤ دار الدعوة للطبع والنشر ط٢ ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

(٣) انظر: فلسفة أوجست كونت . ليفى بريل صـ ٣٠١.

المألوفة التى حفزتها إلى العلم فى خلال القرون التى قص علينا التاريخ أخبارها [١].

٣- أنها أخلاق نسبية :

أعنى أنها ليست ثابتة فالظاهرة الخلقية تخضع لعوامل عديدة ومختلفة ، فهى ليست مطلقة وهذا أمر تقتضيه طبيعة المعرفة فنسبية المعرفة "تؤدى إلى نتيجة مباشرة وضرورية وهى نسبية الأخلاق" [٢].

هذه هى خصائص الأخلاق الوضعية، يتضح من خلالها مكانة العلم الوضعى، وأهمية المنهج العلمى الذى يدعون إليه ويطبقونه على كل شئ زعماً منهم أنه هو السبيل لتحقيق السعادة للفرد والمجتمع .

والسؤال الذى يطرح نفسه هو هل كتب لعلم الأخلاق الوضعى أن يحقق ما يريد؟ الواقع أن علم الأخلاق الوضعى لم يستطع أن يحقق أى نجاح فالمحاولات التى أقيمت لهذا الغرض لم يكتب لها النجاح.

يقول بعض الباحثين: إن المحاولات التى بذلت لإقامة علم أخلاقى وضعى لم تنجح، وإذا أردنا أن نسير فى الطريق السليم ينبغى أن نقلب المشكلة ونحاول أن نصل إلى أخلاق [٣] علمية [٤].

٣- الأخلاق.

أما بالنسبة لأخلاقه فهى أيضاً لم تسلم من النقد الشديد، وأهم ما وجه إليها من انتقادات كانت على النحو التالى:

---

(١) انظر: نفس المصدر صـ ٣٠١.

(٢) نفس المصدر صـ ٣٠١.

(٣)انظر: الفكر المادى الحديث د. محمود عثمان صـ ٩٧.

(٤) انظر: تفصيل هذا فى كتاب دفاع عن العلم. البيربايه مقدمة المترجم الترجمة العربية صـ ٢٤-٣١ تعريب د. عثمان امين. دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦م.

أ- أنها أخلاق عقيمة .

فالأخلاق الوضعية أخلاق عقيمة، ودليل ذلك فشلها فى إيجاد حل لمشاكل المجتمع أو قدرتها على تحقيق السعادة لأفراده فلم تستطع أن تقدم أى نجاح، كما أنها لم تساهم فى القضاء على الفساد المادى أو الاضطراب المعنوى لذا كان أبسط ما يقال عنها بأنها أخلاق عقيمة.

ب- إغفالها للجانب الروحى.

للجانب الروحى تأثير كبير على النفوس، فهو يهذب السلوك ، ويرتقى بالأخلاق إلى أوج كمالها؛ إلا أن أخلاق "كونت" قضت على هذا الجانب وبهذا يكون "كونت" قد وقع فى خطأ كبير وذلك بحصر مهمتها فى القضاء على الجانب الروحى فى الإنسان، وقطع صلته بالعالم العلوى، وهذا انحراف فى الفطرة ، وعدول عن الحق.

يقول يوسف كرم "وفى رأيه أن المهمة التى تجب على الفلسفة الوضعية أن تعمل لها هى محو فكرة الحق الراجعة إلى أصل لاهوتى ، من حيث إنها تفترض سلطة أعلى من الإنسان ، وحصر الأخلاق كلها فى فكرة الواجب ذلك الميل الطبيعى إلى إخضاع النزاعات الدينية لصالح النوع أجمع بحيث يصير شعارنا الحياة لأجل الغير" [1].

جـ- تعارضه مع أصول مذهبه.

من بين الانتقادات التى وجهت إلى أخلاق "كونت" الوضعية هو تعارضها مع أصول مذهبه.

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة . يوسف كرم صـ ١٢٦.

فقد تطلع "كونت" إلى جعل الأخلاق علماً عملياً يستند إلى المنهج الاستقرائى وحده ولكن بمرور الوقت اتسع معنى العلم عند جمهرة الباحثين حتى دخلوا فى مفهومه كل دراسة منهجية منظمة تفسر فى ضوء المنهج الاستقرائى، وبهذا دخل فى العلم دراسات جديدة لا تستند إلى الملاحظة والتجربة، وتقوض تصور القديم لمعنى العلم وهذا مخالفة للمذهب الواقعى وأصوله[1].

د- وأخيراً فإن من بين ما وجه إليها من نقد هو محدوديتها وقصر نظرها، فإن علم الأخلاق "تحول على يد أتباع "كونت" إلى علم واقعى، ومعنى هذا وقوفه على وصف الأحداث الخلقية فقط، ووضع قوانين لتفسيرها دون التعرض لمعرفة أثارها ، والنتائج عليها" [2].

---

(١) انظر: الفلسفة الخلقية د.توفيق الطويل صـ ٢٨٥.

(٢) نفس المصدر صـ ٢٨٤.

الفصل الخامس

من النظريات الأخلاقية

مذهب اللذة

١ – مذهب اللذة في الفلسفة اليونانية :

يستند مذهب اللذة إلى أن كل الكائنات الحية ابتداء من الولادة لديها الميل إلى اللذة ، في حين أنها تعارض الألم بطبيعتها وبدون تفكير في ذلك .

وقد ذهب السوفسطائي كاليكليس (حوالى ٤٠٠ ق. م) إلى أن خير الإنسان يتمثل في اللذة . وكان السفسطائيون عموماً يقولون : إن الطبيعة الإنسانية شهوة وهوى ، ويرتبون على ذلك أن غاية الإنسان اللذة [١].

المدرسة القورينائية :

وذهب أرستيب مؤسس المدرسة القورينائية (نسبة إلى مدينة قورينا من أعمال برقة بطرابلس الغرب التي ولد فيها عام ٤٣٥ ق . م) إلى أن المرء ينبغي عليه أن يختار اللذة ويسعى إليها ، وعلى العكس من ذلك ينبغي عليه أن يهرب من العناء الذي لا يجلب اللذة ، كما ذهب إلى أن اللذة هي صوت الطبيعة فلا موجب للحياء أو الخجل ، ما دامت كل القيود أو الحدود من وضع العرف [٢].

ويدور معظم حديث أرستيب حول اللذات الحسية [٣].

فالأخلاق عنده قائمة على الشعور باللذة والألم ، وهذا الشعور حركة نفسية . فاللذة هي الخير الأعظم وعلى المرء أن يعمل على طلبها أينما وجدت ولكن من غير تعلق بها ، وذلك لأن التعلق بها مصدر قلق وألم ،

---

(١) مقدمة في علم الأخلاق . د. زقزوق . صـ ٧٨ .
(٢) نفس المصدر صـ ٧٨ .
(٣) المشكلة الخلقية . صـ ٧٨ .

ومن غير تفكير في المستقبل لكونه غيب والتفكير فيه مصدر قلق وألم كذلك . فالسعادة في التخلص من الشهوة باللذة التي ترضيها أو بالتخلص من الحياة متى لم يعد منها نفع [1].

وقد نتج عن هذا المذهب بالنسبة لعلم الأخلاق نتائج مختلفة ، وقد رتب البعض عليه رفض المطالب الخلقية ، وهذا يعني الإباحية ، وممن ذهبوا هذا المذهب الإباحي تيودورس أتيوس (حوالي ٤٠٠ ق . م) من مدرسة أرستيب ، فكان يقيس الأعمال بنتائجها — مهما كانت الوسائل ويرى أن السرقة والتزوير ، وعدم احترام المعابد المقدسة ، وما إلى ذلك يمكن أن تكون مباحة أحياناً ، وبذلك ذهب إلى الحد الأقصى في تطبيق مذهب اللذة الهدام .

ولكن التمادي في التطرف يحدث في الغالب أثراً عكسياً ، وينقلب إلى ضد الغرض المنشود ، فقد كانت الأخلاق القورينائية تقوم على الاستمتاع بالحياة ولذائذها ، والبعد عن الآلام جميعها ، ولما رأى أحد رجال هذه المدرسة المتأخرين وهو (هيجسياس) أن من غير الممكن الحصول على هذا الغرض ، وذلك لأن اللذة أمر لا يمكن تحصيله ، وهي مع ذلك سرعان ما تزول — ذهب إلى أنه من الخير لنا أن نتخلص من الحياة بالانتحار استشفاء من متاعب الحياة وآلامها بالموت الذي لا ألم بعده [2].

وقد تابع هذا الرأي كثير من الذين خدعتهم آراء هيجسياس فانتحروا ، ولذلك أطلق عليه لقب الناصح بالموت ، ولما فشى الانتحار

(١) أنظر : تاريخ الفلسفة اليونانية . يوسف كرم صـ ٦١ .

(٢) مقدمة في علم الأخلاق . صـ ٧٩ .

خشى الملك بطليموس استفحال هذه الدعوة ، فأمر بنفيه وإغلاق مدرسته ، ثم مات هيجسياس بعد ذلك منتحراً [١].

المدرسة الأبيقورية :

ينبني المذهب الأبيقوري على القواعد الأربع الآتية :

١ – الأخذ باللذة التي لا يعاقبها أي ألم .

٢ – تجنب الألم الذي لا يؤدي إلى أية لذة .

٣ – تجنب اللذة التي قد تحرم من لذة أعظم منها ، أو تسبب ألماً أكثر مما فيها من اللذة .

٤ – تقبل الألم الذي يخلصك من ألم أعظم منه ، أو يجلب لذة أرجح من ذلك الألم [٢].

ومن أقوال أبيقور (لا تسرف في الأكل خشية سوء الهضم ولا في الشرب خشية ما يحدث صباح اليوم التالي ، واحتقر المرأة والسياسة وسائر الأعمال الشهوانية على الجملة : عش واتق الخوف) [٣] .

ومن ذلك نرى أن أبيقور هو أول مخترع لما سمي بحساب المنفعة ، فلا نطلب اللذة الحاضرة لمجرد كونها لذة فحسب ، بل نطلب منفعتنا طول الحياة إن أمكن ، أي نطلب لذة خالصة دائمة هي ما يعبر عنه بالسعادة [٤].

---

(١) انظر : تاريخ الأخلاق صـ١٠٢ وما بعدها ، والفلسفة الخلقية صـ ٥٢ نقلاً عن السابق صـ ٧٩.

(٢) انظر : الأخلاق النظرية . د.بدوي صـ ٢٤٣ .

(٣) المدارس الفلسفية . د. الأهواني صـ ٨٢ . الدار المصرية للتأليف والترجمة

(٤) انظر : مقدمة في علم الأخلاق صـ ٨٠، دروس في تاريخ الفلسفة صـ ٤٠ .

ولم يكن حديث أبيقور منصباً على اللذات الحسية فقط – كما فعل أرستيب – بل إنه قد أعلى من شأن اللذات الروحية . ودعا أيضاً إلى اتباع مطالب الفضيلة ، فقد كان يوصي بالقناعة ويعتبرها الفضيلة الأساسية ، لأنها تحفظ الصحة وتطيل الحياة ، وفي الصحة والحياة تتجمع كل وسائل السعادة . وكان يدعو إلى الصداقة ويعتبرها من أسمى الفضائل ، لأن الصديق يعين صديقه ويحميه ويدفع عنه الظلم والاعتداء ، ومن أجل ذلك فمن الخير جمع أكبر عدد من الأصدقاء بقدر الإمكان . والعدالة فضيلة لأنها تمنع المرء من التعدي على غيره خشية رد الفعل ، فالحكيم يرعى العدالة ليضمن لنفسه السلامة من الانتقام ، ومن خوف الانتقام ، فيعيش في اطمئنان ، وهذا خير ما يطلب .

ولكن من الواضح أن أبيقور بمثل هذه النصائح لم يكن يمثل مذهباً أخلاقياً حقيقياً . فدعوته إلى الفضائل لم تكن دعوة حقيقية ، لأن الفضائل لديه لا اعتبار لها إلا إلى الحد الذي يجلب للشخص المنفعة ويكفل الطمأنينة [١].

ومن جانب آخر شوه اتباع الأبيقورية من الرومان هذه الأخلاق القائمة على القناعة والاعتدال ، والداعية إلى طمأنينة النفس ، ومالوا بها إلى الاندفاع لإنتهاب الملذات ، والانغماس في كل أنواع الشهوات وهذا تزييف لمذهب أبيقور ليس أظلم منه تزييف [٢].

---

(١) انظر : مقدمة في علم الأخلاق د . زقزوق صـــ ٨١ .
(٢) انظر : الأخلاق النظرية د. عبد الرحمن بدوي صـــ ٢٤٥ .

٢ – مذهب اللذة في العصر الحديث :

لم يجد مذهب اللذة ممثلين له في العصر الوسيط ، كما لم يجد ممثلين له أيضاً في الفلسفة الإسلامية ، ولكنه عاد إلى الظهور مرة أخرى في عصر النهضة الأوربية على يد المفكر الإيطالي (لا ورينسيوس فللا) الذي عاش في القرن الخامس عشر ، فقد ذهب إلى أن الإنسان يطلب اللذة والسعادة بطبيعته ، ولكن اللذة الحقيقة لا يمكن الحصول عليها إلا في السعادة الأبدية بعد الموت ، فربط بذلك بين اللذة والسعادة .

وفي القرن السابع عشر ظهر ممثل آخر لمذهب اللذة المرتبط بالسعادة هو (جاسندي) ، ثم ظهرت هذه التعاليم مرة أخرى في القرن الثامن عشر في عصر التنوير في فرنسا على يد الفلاسفة الماديين : (لامتريه ، هلفيتسيوس ، بارون فون هولباخ) [١].

وفي القرن التاسع عشر ظهر مذهب اللذة في إنجلترا على يد بنتام وأتباعه . وكان بنتام يقول : " وضعت الفطرة الإنسان تحت حكم اللذة والألم ، فنحن مدينون لهما بكل أفكارنا ، وإليهما ترجع جميع أحكامنا وجميع مقاصدنا في الحياة ، ومن يدعي انه أخرج نفسه من حكمهما لا يدري ما يقول فإن غرضه الوحيد – حتى في اللحظة التي يرفض فيها أعظم اللذائذ وتقبل أشد الآلام – إنما هو طلب اللذة والهروب من الألم [٢].

وقد تجدد مذهب اللذة في القرن العشرين وطرأت عليه تعديلات على يد ممثل الوضعية الجديدة (موريس شليك) (١٨٨٢ – ١٩٣٦) وغيره كما نستطيع أن نتبين مذهب اللذة أيضاً في تعاليم سيجموند فرويد (١٨٥٦ – ١٩٣٩) [٣].

---

(١) انظر : مقدمة في علم الأخلاق صـ ٨٢ .
(٢) انظر : الأخلاق لأحمد أمين صـ ٦١ ، ٦٢ .
(٣) انظر : مقدمة في علم الأخلاق صـ ٨٢ .

نقد مذهب اللذة :

يتضمن مذهب اللذة كنظرية للسلوك الإنساني بعض ما هو صحيح . وذلك فيما يتعلق بميلنا لتجنب الألم والحصول على اللذة . ولكن هذا المذهب لا يصلح أن يكون مذهباً أخلاقياً ، ولا تصلح اللذة أن تكون غاية أخلاقية للسلوك الإنساني . ولو كان يكفي أن ينشد المرء اللذة ويتجنب الألم لكي يكون كائناً أخلاقياً لما وجد أي فرد أية صعوبة في أن يكون صاحب خلق .

ولكن الضمير أو الشعور الخلقي لا يلبث أن يثير في أنفسنا الكثير من الشكوك حول قيمة مبدأ اللذة في توجيه سلوكنا وهداية ضمائرنا ، وحينما يتحقق الإنسان من أن حساب اللذات عاجز عن تحقيق التوازن النفسي لصاحبه ، وأن حياة اللذة لا يمكن أن تقضي إلا إلى حالة أليمة من التشتت الروحي أو التمزق النفسي — فهناك لا بد من أن يتولد لديه إدراك واضح لعجز اللذة عن تفسير نفسها بنفسها ، واقتناع تام بقصور مبدأ اللذة عن توجيه السلوك الإنساني كله .

وهناك — فضلاً عن ذلك — مآخذ أخرى على مذهب اللذة نذكر أهمها فيما يلي :

(١)مذهب اللذة مذهب مبني على الأثرة وحب اللذات ، لأنه يجعل خيرية العمل في تحصيل أنفع للذات لشخص العامل ، وهو يقتصر على تصوير ما عليه غالبية الناس في المجتمع الإنساني بدلاً من البحث عن المثل الأعلى ، فهو يصور ما هو كائن لا ما ينبغي أن يكون .

(٢)البحث عن اللذة وما يرتبط بها من سعادة قانون نفسي وليس قانوناً أخلاقياً . كما أنه يختلف من شخص إلى أخر ، ويتغير أيضاً بتغير الأزمنة والأماكن .

(٣) إن اللذة ليست خيراً دائما ، كما أن لألم ليس شراً دائماً . فقد ينقلب الألم لذة وبالعكس ، فلذة الشراهة قد تقود المرء أحياناً إلى المرض وفساد الصحة ، وقد تذهب بالحياة ، ولذة الانتقام تعرض صاحبها للعقوبة والندم ...الخ .وعلى العكس من ذلك فإن بتر عضو مريض قد يخلص الحياة ، وتناول دواء مر تعافه النفس قد يسبب الصحة وما شابه ذلك [1].

(٤)وأخيراً يمكن القول بأن كل فلسفة أخلاقية تمجد اللذة ، وتوحد بين الخير والقيم الحيوية لابد من أن تنتهي إلى القضاء على كل إحساس بالقيم لدى الفرد . وذلك لأن الإنسان إذا أصبح عبداً للملذات فإنه لن يلبث أن يضحي بالأعلى في سبيل الأدنى . ومن ثم فإنه لا بد من أن يصبح في خاتمة المطاف مجرد حيوان أناني [2].

---

(١) انظر : مقدمة في علم الأخلاق صـ ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) انظر : المشكلة الخلقية صـ ١٤١ .

الفصل السادس

دراسة لبعض الفضائل والقيم الأخلاقية وأثرها على الفرد والمجتمع

المطلب الأول

الصدق وأثره على الفرد والمجتمع

الصدق فضيلة من أهم الفضائل التى يجب أن يتصف بها المجتمع المؤمن ؛ لكونه من أهم الخلال التى يتوقف عليها صلاح المجتمع . فهو فضيلة لا يستغنى عنها أى مجتمع صاحب كرامة ، والمجتمع الذى يعيش عليه مجتمع فاضل.

وقد عرفه العلماء فى اللغة بأنه : ضد الكذب وهو مطابقة الحكم للواقع[١].

وفى اصطلاح العلماء بأنه "الإخبار عن الشيء على ما هو عليه بخلاف الكذب فإنه الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه " [٢].

والصدق كفضيلة خلقية لها أثرها الطيب على المجتمع . تحدث العلماء عنها وأفاضوا فى الحديث عنها ، وقد ذكر الإمام الغزالى بأنها فضيلة متسعة المعانى ، متعددة الجوانب ، فقال:

واعلم أن لفظ الصدق يستعمل فى ستة معان :

١ – صدق في القول
٢ – صدق في النية والإدارة
٣ – صدق في العزم
٤ – صدق في الوفاء بالعزم
٥ – صدق في العمل
٦ – صدق فى تحقيق مقاومات الدنيا كلها

---

(١)انظر : القاموس المحيط جـ٢ صـ١١٤٩ ؛ التعريفات للجرجانى صـ١٧٤.

(٢)أدب الدنيا والدين –الماوردى. صـ٢٥٣ تحقيق مصطفى السقا .دار الكتب العلمية ط٤ ١٣٩٨هـ /١٩٧٨م .

ومن خلال هذه الأخلاق يتضح لنا ضرورة الإيمان بالغيب إذ إنه يهيج النفس على التحلى بالفضائل وهجر الرذائل ، كما أنه دعامة أساسية فى خلق الإنسان تدفع إلى صلاح المجتمع ونقاء أفراده ، بخلاف الكذب فهو على العكس من الصدق.

وقد عرفه العلماء بأنه عدم مطابقة الخبر للواقع ، وقيل هو إخبار لا ما عليه المخبر[١].

ولهذا رغب الإسلام فى الأول وحذر من الثانى.

قال تعالى : ﴿ يأيها الذين أمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾[٢].

وقال تعالى : ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ [٣].

وقال تعالى:﴿ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾[٤].

وفى الحديث الشريف عن ابن مسعود قال : قال رسول الله (إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا)[٥].

---

(١)انظر : إحياء علوم الدين .الغزالى جـ٤ صـ٤٠٩؛ انظر : التعريفات للجرجانى صـ٢٣٥.

(٢)سورة التوبة الآية ١١٩.

(٣)سورة الإسراء الآية ٨٠ .

(٤)سورة الأحزاب الآية ٢٤

(٥)الحديث أخرجه البخارى ك الأدب باب قول الله تعالى " يأيها الذين أمنوا أتقوا الله وكونوا مع الصادقين " م٤ جـ٨ صـ٣٥١ (ح)(٩٧٢).

وفى جانب الكذب يقول تعالى ﴿ إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بالله ..... ﴾ (١).

والمعنى : إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن بوجود إله يحاسبه على ما فعل فهو لا يترقب عقاباً عليه، وأولئك هم الكاذبون، أى هم الذين لا يؤمنون فهم الكاذبون(٢).

وقال تعالى : ﴿ ..... ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة..... ﴾ (٣) .

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الشريفة التى تؤكد على أهمية الصدق وترغب فيه وتحقر من الكذب وتنفر فيه ، فعلى الأول تستقيم الأخلاق ، وتتقدم المجتمعات ويسعد الأفراد ، وعن طريق الثانى تنهار القيم وتغيب الأخلاق النبيلة مما يترتب عليه هلاك المجتمع وفساد أفراده.

أثر الصدق على الفرد والمجتمع

للصدق أثار عديدة تعود بالخير على الفرد والمجتمع منها:

١- أمن المجتمع واستقراره:

الأمن نعمة عظيمة من حرم منها حرم من خير كثير ، والمجتمع المؤمن مجتمع آمن يجمع بين العفة والعدل والصدق وسائر القيم النبيلة التى توجد بوجود الإيمان ، وتنعدم بانعدامه . فالأمن فى أى مجتمع إنما " يقاس بدرجة الإيمان فى الأفراد ، وكلما ازداد إيمان الأفراد آمن الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم وكلما خف وزن الإيمان فى النفوس اضطرب الناس

---

(١)سورة النمل الآية ١٠٥.

(٢)انظر : تفسير الكشاف جـ٢ صـ٦٣٥-٦٣٦.

(٣)سورة الزمر الآية ٦٠.

واستولى عليهم القلق فيما يتعلق بدمائهم وأعراضهم وأموالهم، مهما كانت سيطرة القانون وقوته . فالقوانين لا تمس من الإنسان إلا الشكل الظاهرى، أما الإيمان فإنه يسيطر على الكيان الإنسانى كله "[١].

ومن هنا كان الإيمان ضرورة للمجتمع فبه يعدلون ، وعن طريقه يصدقون ، ولأجله يوفون ولا يتحيزون ، بخلاف المجتمع الملحد الكاذب ، فلا يأمن فيه الناس على شيء مما لهم ، وذلك؛ لأن الكذب رأس كل خطيئة ، ومصدر كل رذيلة لهذا لا غرابة فى أن نرى أمر الله تعالى لأهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين.

قال تعالى : ﴿ يأيها الذين أمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ [٢].

٢- القضاء على حيرة البشر:

إن من أهم الآثار التى تعود على الأفراد والمجتمعات من وراء هذه الفضيلة هو طمأنينة النفس، وهدوء الخاطر، وراحة الضمير، والشعور بالرضا والطمأنينة، وكلها أمور إذا عدمت عدم وراؤها خير كثير، وأصيب الإنسان بالقلق والحيرة، وقد أكد هذا الرسول(ﷺ) بقولة: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة)[٣].

٣- القضاء على النفاق:

الإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب لهذا لا يجتمع إيمان وكذب.

---

(١)الإسلام والإيمان . د/ عبد الحليم محمود صـ١٩٥ . دار الكتب الحديثة ط١ .

(٢)سورة التوبة الآية ١١٩ .

(٣)الحديث أخرجه :النسائى ك الأشربة باب الحث على ترك الشبهات م٤ جـ٨ صـ٣٢٧-٣٢٨ . من حديث الحسن بن على. دار الجيل بيروت، والحاكم فى المستدرك جـ٤ صـ١١٠ ح (٧٠٤٦) وقال هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

قال تعالى ﴿ والذين أمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون﴾ [١]

وفى الحديث الشريف سئل النبى (ﷺ): (أيكون المؤمن جباناً ؟ قال : نعم قيل أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال : نعم ! أيكون المؤمن كاذباً ؟ قال : لا)[٢] وفى الحديث الشريف (آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أو أؤتمن خان)[٣].

فالكذب إحدى علامات النفاق، وإذا ما حل النفاق بمجتمع كان ذلك إيذنا بهلاكه، وكل ذلك لظهور علامة الكفر وإمارة النفاق فالمنافقون يزيفون الحقائق، ويقلبون الأمور، فيلبسون كل أمر ما يلائمه تبعا لهواهم، ويقولون خلاف ما يفعلون.

٤- القضاء على ألوان الفساد:

الصدق فضيلة أساسية ضرورية للاجتماع الإنسانى، وبدونه يكون الكذب الذى هو رذيلة محضة لها أخطارها وأثارها.

" فهو ينبئ عن تغلغل الفساد فى نفس صاحبها، وعن سلوك ينشئ الشر إنشاء، ويندفع إلى الإثم من غير ضرورة مزعجة أو طبيعة قاهرة "[٤].

فمن خلال الصدق يكون المجتمع نقيا طاهراً لا خداع فيه، ولا جدال، ولا مراء ولا بغضاء ولا شيء من الأخلاقيات الشاذة والفاسدة وبالجملة أنه بدون الصدق " ما قامت شريعة، ولا استنارت سبيل الهداية، ولا دّون علم، ولا أُتقن فن، ولنتصور مجتمعا لا أثر فيه للصدق كيف تكون حياته إنه

---

(١)سورة الحديد الآية ١٩

(٢)الحديث أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان باب حفظ اللسان عما لا يحتاج جـ٤ ص٢٠٧ ح (٤٨١٢) دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٤١٠هـ تحقيق محمد السعيد.

(٣)الحديث أخرجه البخارى ك الإيمان باب علامة المنافق م١ جـ١ صـ٨٠ ح (٣٢) من حديث أبى هريرة.

(٤)خلق المسلم الشيخ. محمد الغزالى صـ٣٦. دار القلم دمشق ط١٣ ١٤١٨هـ/١٩٩٨.

بالطبع لا يمكن أن يكون له حياة حقيقية بإنسان عاقل" [١] ويصبح الأمر كما قال بعض المصلحين:

" وانظر فيما إذا فقدت أمة خلة الصدق كيف يتيح الشقاء بها رواحله، وينفذ سوء البحث فيها عوامله، وكيف يفسد نظامها، ويفسد التئامها "[٢].

٥- مساعدة الأمة على أداء رسالتها:

الصدق فضيلة لا شك فى ذلك، ومن أعظم آثاره القويمة أنه يساعد المجتمع على أداء رسالته.

فقد أثبتت التجربة أن نجاح أى مجتمع يعود إلى ما قدمه أبناؤه من أعمال صادقة يقول بعض الباحثين: "ونجاح الأمم فى أداء رسالتها تعود إلى جملة ما يقدمه بنوها من أعمال صادقة، فإذا كانت ثروتها من صدق العمل كبيرة، سبقت سبقاً بعيداً، وإلا سقطت فى عرض الطريق ، فإن التهريج والخبط والادعاء والهزل لا تغنى فتيلاً عن أحد "[٣].

وهذا أمر لا خلاف عليه؛ حيث إن الكذب يؤدى إلى قلب الحقائق ، ومشاهدة الأمور على غير ما هى عليه، مما يترتب عليه إعاقة المجتمع عن أداء رسالته " فالكاذب يرى البعيد قريباً ، والقريب بعيداً، ويظهر النافع فى صورة الضار، والضار فى صورة النافع ، فهو رسول الجهالة، وباعث الغواية، وظهير الشقاء، ونصير البلاء، فعلى ما تقدم تكون صفة الصدق ركنا ركنيا

---

(١)تاريخ النظريات الأخلاقية أ. أبو بكر ذكرى صـ٩٣ دار الفكر العربى ط٤ ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م.

(٢)الرد على الدهريين .الشيخ جمال الأفغانى صـ٦٣.

(٣)خلق المسلم . للشيخ الغزالى صـ٤٤ ، انظر: من كنوز السنة .الشيخ محمد الغزالى صـ١٣٢-١٣٤- مكتبة نهضة مصر طبعة خاصة بمناسبة مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٢.

للوجود الإنسانى ، وعماداً للبقاء الشخصى، والنوعى وموصل العلائق الاجتماعية بين أحد الشعوب، ولا تتحقق ألفة مدنية أو منزلية بدونه "[١].

وقصارى القول: إن الصدق عامل أساسى عن طريق تستطيع الأمم أداء مهامها ، لهذا كان لا بد من التحلى به فأثره عظيم، وفضله كبير، بخلاف الكذب فهو سبيل للتردد والاضطراب ،وباعث على الفساد ، وعائق بين الأمم وبين رسائلها.

إن الصدق من أهم الأسس التى تبنى عليها المجتمعات، ولولاه ما بقى مجتمع موجود وهذا ما أكدته التجارب. فقد كان الكذب سبباً لهلاك أمم كثيرة سلكت طريقه وحرمت ما أحل الله ، وأحلت ما حرم الله وقد ساق القرآن أمثلة متعددة لهذه المجتمعات .

قال الله تعالى ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله وارجو ا اليوم الأخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، فكذبوه فأخذهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين﴾[٢].

---

(١)الرد على الدهريين. جمال الأفغانى صـــ٦٣ .

(٢)سورة العنكبوت الآيتان ٣٦/٣٧.

هذه هى بعض الآثار التى تعود على الفرد والمجتمع من جراء التخلق بهذا الخلق العظيم، مما يؤكد ضرورة التمسك به خصوصاً وأنه دافع لعزة الفرد ، وسيادة المجتمع، وهناك جملة أخرى من الآثار[1] يمكن الوقوف عليها من خلال تدبر آى القرآن الكريم، وسنة الرسول(ﷺ) ، هذا بالإضافة إلى واقع الناس أنفسهم وتجارب الأمم الماضية، والتى تأكد من خلالها أهمية وضرورته للإنسان لاسيما وأنه خاصة من خواصه وعليها مدار المجتمع البشرى فى جميع حركاته .

المطلب الثانى

العدل وأثره على الفرد والمجتمع

من المعلوم أن الإيمان إذا استقر فى مجتمع ما استقر من ورائه فضائل كثيرة ، وخلال وفيرة عن طريقها يسعد الأفراد ، ويبقى المجتمع موجوداً قوياً متمسكاً، وإذا غاب الحق عن مجتمع ما من المجتمعات أدى ذلك إلى هلاكه وتمزق جماعاته فأى مجتمع لا يقوم إلا عن طريق " رجال يلون ضروباً من الأعمال، فمنهم حراس على حدود المملكة يحمونها عن عدوان الأجانب عليها،ويدافعون الوالج فى ثغورها، وحفظة فى داخل البلاد يأخذون على أيدى السفهاء ممن يهتك ستر الحياء ويميل إلى الاعتداء من فتك أو سلب، أو نحوهما، ومنهم حملة الشرع وعرفاء القانون، يجلسون على منصات

---

(١)انظر:موسوعة نضرة النعيم فى مكارم أخلاق الرسول الكريم (ﷺ) إعداد مجموعة من العلماء بإشراف . صالح بن الله، عبد الرحمن بن محمد جـ٦ صـ٢٥١٦ دار الوسيلة للنشر والتوزيع ط٢ ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، انظر :الكذابون وموقف القرآن الكريم منهم. د. محمود النقراشى. بحث منشور بحولية كلية أصول الدين بالمنصورة العدد ٣ صـ١٥٠-١٥١ .
دار الإسلام للطباعة ١٤١٧هـ-١٩٩٧.

الأحكام لفصل الخصومات والحكم فى المنازعات، ومنهم أهل جباية الأموال، يحصلون من الرعايا ما فرضت عليهم الحكومة من خراج مع مراعاة قانونها فى ذلك ، ثم يستحفظون ما يحصلون فى خزائن المملكة، وهى خزائن الرعايا فى الحقيقة، وإن كانت مفاتيحها بأيدى خزنتها، ومنهم من يتولى صرف هذه الأموال فى المنافع العامة للرعية مع مراعاة الاقتصاد والحكمة ، كإنشاء المدارس والمكاتب وتمهيد الطرق وبناء القناطر ، وإقامة الجسور، وإعداد المستشفيات ويؤدى أرزاق سائر العاملين، فى شئون الحكومة من الحراس والحفظة وقضاة العدل، وغيرهم حسبما عين لهم" (١).

فهذه الطبقات لو لم تؤد عملها بطريق العدل ترتب على ذلك سقوط المجتمع وانهيار أفراده.

وفى الصفحات التالية أعرض للعدل من حيث تعريفه وأثاره العظيمة لتنكشف الصورة عن قبيح الظلم، وشناعته وعقوبة فاعله. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ليتضح أهمية العدل حيث إنه من القواعد التى بدونها لا تقوم لمجتمع متحضر قائمة والتى بدونها تنهار القيم.

فالعدل فضيلة من أمهات الفضائل اللازمة للفرد والمجتمع لكونه فضيلة فردية واجتماعية معا إنها فردية من حيث إنها تدل على مزاج ذاتى خاص عند الإنسان العادل، واجتماعية من حيث أنها ترعى حقوق الغير، وتفترض بالضرورة تعدد الأشخاص "(٢).

---

(١)الرد على الدهريين .جمال الدين الأفغانى صـ٦٠.

(٢)الأخلاق النظرية .د. عبد الرحمن بدوى صـ١٦٥. الناشر وكالة المطبوعات بالكويت ١٩٧٥ .

ولهذا يقول أرسطو : إن العدالة تهتم بالمجتمع المدني ولذا فهي فضيلة بالنسبة للغير، وليست فضيلة مطلقة[١].

وقد عرفه العلماء في اللغة بأنه: " ضد الجور، وما قام في النفوس أنه مستقيم " [٢].

وفي الاصطلاح هو" فضيلة للنفس تحدث من اجتماع الفضائل الثلاثة الحكمة والعفة والشجاعة– وذلك عند مسالمة هذه القوى بعضها للبعض، واستسلامها للقوة المميزة حتى لا تتغالب ولا تتحرك لنحو مطلوباتها على سوم طبائعها، ويحدث للإنسان بها سمة يختار بها أبداً الإنصاف من نفسه على نفسه أولاً ثم الإنصاف والانتصاف من غيره له"[٣].

فهو هدف نبيل تتوق إليه الشعوب للأثر المترتب عليه ، وقد أمر الله به وحبب فيه ودعا إليهم في كثير من آيات القرآن.

قال تعالى ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل..... ﴾ [٤].

وقال تعالى ﴿ يأيها الذين أمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنأن قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى . ﴾ [٥].

وقال تعالى ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان. ... ﴾ [٦].

---

(١)نفس المصدر صـ١٦٥.

(٢)القاموس المحيط للفيروز أبادى جـ٢ صـ١٣٦١.

(٣)تهذيب الأخلاق .ابن مسكويه صـ٢٧ .

(٤)سورة النساء الآية ٥٨.

(٥)سورة المائدة الآية ٨ .

(٦)سورة النحل الآية ١٧٦.

إلى غير ذلك من الآيات التى توضح أن العدل المراد عدل شامل يشمل كل نواحي الحياة، ويمكن للمرء الوقوف على مكانة العدل من خلال النظر إلى ما يقابله وهو الظلم .فهو داء خطير ، وخلق ذميم ، بسببه تنهار الأخلاق، وتضيع الحدود وترتكب المعاصى، وتغتصب الحقوق ، وتهلك المجتمعات وتختفى الفضائل والخيرات وهذه الأمور كلها يؤكدها تعريف العلماء للظلم .

فقد عرف بأنه. وضع الشيء فى غير موضعه ... وقيل هو التعدى من الحق إلى الباطل وهو الجور.

ولأهمية العدل وخطورة الظلم نجد أن الإسلام حبب فى الأول وندد بالثانى مبيناً سوء فاعله وشدة عذابه يوم القيامة.

قال تعالى ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴾ (١).

وقال تعالى ﴿ .... لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ﴾ (٢).

وفى الحديث الشريف:

(إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل ، وكلتا يديه يمين الذين يعدلون فى حكمهم وأهاليهم وما ولو)(٣).

---

(١)سورة إبراهيم الآيتان ٤٢-٤٣ .

(٢)سورة مريم الآية ٣٨

(٣)الحديث أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العدل وعقوبة الجائر م٦ جـ١٢ صـ٢٠٣ ح(١٨٢٧) .

وفى حديث أخر:

(سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل....)[١].

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التى تحث على العدل وتوضح فضل فاعله ، وتقبح الظلم وتبين عقوبة فاعله.

أثر العدل على الفرد والمجتمع:

للعدل آثار كثيرة يمكن الوقوف على أهمها من خلال ما يلى :-

أ-القضاء على المذاهب الهدامة:

فمن المعلوم أن أوربا قد عانت خلال العصور الوسطى من طغيان رجال الكنيسة الأمر الذى ألب القلوب عليها والقيام بحملات نقد شديدة لها نتيجة للظلم الواقع على الناس من القائمين على أمرها ، وكل ذلك تحت دعوى الدين. فقد مارست الكنيسة الظلم فى أبشع صورة ، واستطاعت بطغيانها فرض عقيدة التثليث، تلك العقيدة الباطلة التى تتصادم مع المنقول والمعقول، وقد لعنت مخالفيها ، والأعجب من ذلك أنها سفكت دماء المخالفين لها من الموحدين، بل وأعطت نفسها حقوقاً خاصة بالله وحده، وذلك مثل حق الغفران الذى عرف فيما بعد بمهزلة صكوك الغفران، وأوقفت تفسير الكتاب المقدس على نفسها وعملت على ضرورة أخذ الناس بكل ما تقول به واستعملت فى ذلك كل الوسائل الممكنة وغير الممكنة، مما نتج عنه ظهور دعوات هدامة، وتيارات مادية فكان من أولى تلك المذاهب

---

(١)الحديث أخرجه البخارى ك الزكاة باب الصدقة باليمين م١/جـ٢ صـ٦٠٣ ح(١٣٢٠). مسلم ك الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة م٤جـ٧ صـ١٢٣-١٢٤- ح ١٠٣١.

العلمانية التى تهدف إلى فصل الدين عن الدولة، وقد ظهر هذا التيار نتيجة للشعور بالظلم والطغيان من قبل رجال الدين .

ثم تبعها دعوات أخرى وذلك كالشيوعية التى لم تظهر ولم يكتب لها النجاح إلا حيث كان الظلم ظلمات وإرهاقاً لا يطاق ، وكذا الإباحية المدمرة التى لم تظهر إلا مع الظلم وغياب الدين[1].

فالمجتمعات المؤمنة بوجود إله خالق للناس، وعالم أخر يجازى فيه المرء على ما قدم لا يقدم أفرادها على ظلم، ولا يقترف فيها أحد حق أحد، من هنا يتأكد لنا أهمية الإيمان بالغيب وضرورته فى الناحية الخلقية.

ب-انتشار الألفة والمودة بين أفراد المجتمع:

من أهم الآثار التى تعود على الفرد والمجتمع من وراء الالتزام بفضيلة العدل انتشار الألفة والمودة بين الأفراد والجماعات لأن ذلك لازم عن العدل " فبالعدل والمساواة تشيع المحبة بين الناس، وتأتلف نياتهم"[2].

إن مما يدعو إلى التحلى بهذا الخلق النبيل أنه يعمل على إشاعة المودة بين الناس، ويقوى أواصر المحبة بينهم مما يعنى تعاون الأفراد ، على حين أن الظلم ظلمات يورث الحقد والكره فنراه "يوغر صدر الابن على أبيه، والبنت على أمها ، والرعية على راعيها، فتدب عقارب الفساد وتسعى عوامل الخراب فى تدمير كل ما تبنيه يد الأمن والعدالة "[3].

---

(١)انظر :تاريخ النظريات الأخلاقية أ- أبو بكر ذكرى صـ٨٦.

(٢)الهوامل والشوامل. لأبى حيان التوحيدى ومسكويه صـ٨٤ نشره أحمد أمين ، السيد أحمد صقر. الهيئة العامة لقصور الثقافة. سلسلة الذخائر العدد٦٨.

(٣)تاريخ النظريات الأخلاقية .أ. أبو بكر ذكرى صـ٨٦.

ويؤكد ذلك أن الله تعالى قد قرن العدل بالإحسان فقال تعالى: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان...... ﴾ (١).

فالعدل خلق قويم إذا ضم إليه الإحسان كانت الثمرة أعظم ، والفائدة أعم فالغرض من العدل إعطاء كل ذى حق حقه ووضع كل شيء فى موضعه ، أما الإحسان يلقى بالرحمة والمودة على كل جوانب المجتمع وعلى جميع أفراده فيعم الخير وتزداد أواصر المودة والمحبة بين الناس.

ولهذا يقول " ابن مسعود " إن هذه الآية أجمع أية لخير أو شر (٢).

وقد يكون السبب فى ذلك " أن الإحسان ليس علماً عادياً، ولا عملاً عادياً إنما هو الشاق البعيد الذى تبلغ الأشياء فيه تمامها ، وتزهى فيه بجودتها وبنقائها ، والمسلم مخاطب بنشدان هذه المنزلة فى كل ما يمس من عمل ، العادات والعبادات فى ذوقه وفقهه سواء ، إذ العادات بمجرد اقترانها بنيه الخير تتحول إلى عبادات "(٣).

وهكذا تتحقق المودة والألفة وتعم الرحمة والإخاء بين الأفراد والجماعات عن طريق العدل ، والواقع يشهد بذلك فبين المجتمعات المؤمنة تنتشر كل معانى الخير إلا ما شذ عنها وبين المجتمعات الملحدة وتنتشر الرذائل والمعانى الخبيثة وكل صفوف الشر إلا ما شذ عنها.

جـ- أساس بقاء المجتمع:

فالعدل هو سبب سيادة الأمة وأساس بقائها. "فهو للحياة الاجتماعية

---

(١)سورة النحل الآية ٩٠ .

(٢)تفسير الرازى مجلد ١٠ جـ٢٠ صـ١٠٣-١٠٤.

(٣)الجانب العاطفى فى الإسلام . الشيخ محمد الغزالى صـ٧٦ . دار الدعوة و للطباعة والنشر ١٤١٠ هـ/١٩٩١م .

كأنفاس الحياة للكائنات الحية، وهو لنهضات الشعوب كالماء العذب فى سقى الزرع "[١].

فعن طريقه " تعمر البلاد وتنمو به الأموال ، ويكثر معه النسل ويأمن به السلطان ....وليس أسرع من خراب الأرض ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور لأنه ليس يقف على حد، ولا ينتهى إلى غاية ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل "[٢].

والمتأمل فى قصص السابقين يجد أن ما من أمة جارت ، أو فرد طغى وظلم إلا كان ذلك سبباً لهلاكه والقضاء عليه.

قال تعالى: ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ [٣].

والمعنى الذى تريده الآية هو "تحذير من وخامة عاقبة الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها ، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه بذنب يقترفه ، فعلى كل من أذنب أن يحذر أخذ ربه الأليم الشديد ، فيبادر بالتوبة ، ولا يغتر بالإهمال فالمجتمع الظالم هالك لا محالة[٤].

وقال تعالى فى حق "فرعون" عندما طغى وتجبر وتكبر وادعى الألوهية فكان عقابه ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ [٥].

---

(١)نفحات القرآن الكريم . الشيخ عبد اللطيف السبكى صـ٢٧٢ . الهيئة المصرية العامة للكتاب مهرجان القراءة للجميع صيف ٢٠٠٢.

(٢)أدب الدنيا والدين .للماوردى صـ١٤١ .

(٣)سورة هود الآية ١٠٢

(٤)تفسير الكشاف .جـ٢ صـ٤٢٧ عند تفسيره للآية ١٠٢ من سورة هود.

(٥)سورة النازعات الآيتان ٢٥-٢٦.

والمعنى : "نكل الله به فى الآخرة والأولى والنكال بمعنى التنكيل ... يعنى الإغراق فى الأولى ، والإحراق فى الآخرة "(١).

وقال تعالى﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا.... ﴾ (٢).

وفى الحديث الشريف : (ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات فالعدل فى الغضب والرضا ، وخشية الله فى السر والعلن، والقصد فى الغنى والفقر، وأما المهلكات فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه)(٣).

فالعدل قاعدة مهمة لبقاء المجتمع، فلا انتظام إلا به، ولا نجاة لأفراده إلا من خلاله ولا مكان للفقراء إلا عن طريقه ولا حفظ لأموال الأغنياء إلا بمبادئه فلست " تجد فساداً إلا وسببه نتيجة الخروج فيه عن حال العدل إلى ما ليس بعدل.... فإذن لا شيء أنفع من العدل ، كما أنه لا شيء أضره ما ليس بعدل " (٤).

د-انتظام العلاقة بين الأفراد:

المجتمع العادل مجتمع منظم فيه تنتظم العلاقة بين أفراده كل يعرف ما له من حقوق وما عليه من واجبات فلا ميل لأحد فيه إلا للحق، لأن من أعدى أعداء العدل التحيز وهو ميل الإنسان لأحد المتساويين ميلا يجعله يعطيه أكثر من حقه ، وينقص الأخر حقه(٥).

---

(١) تفسير الكشاف جـ٤ صـ ٦٩٦ عند تفسيره للآيتين ٢٥-٢٦ من سورة النازعات.

(٢)سورة النحل الآية ٥٢.

(٣)الحديث أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان جـ٥ صـ٤٥٢ (ح) ٧٢٥٢ عن أبي هريرة وله شاهد عن ابن عمر وأخرجه الطبرانى فى الأوسط جـ٦ صـ٤٧ (ح) (٥٧٥٤).

(٤)أدب الدنيا والدين صـ١٤٤.

(٥)كتاب الأخلاق . أحمد أمين صـ٢٦١ .مطبعة لجنة التأليف والترجمة ط٥ ١٩٤٨ .

مما ينتج عنه اختلال العلاقة بين الأفراد وعدم انتظامها وهذا خلاف ما عليه أفراد المجتمع المؤمن العادل. إن مبدأ العدالة يعمل على تنظيم العلاقة من خلال رفضه للتحيز ونبذه له، فالمجتمع المؤمن يسود العدل فى كل شيء فيه ويعمل على تحقيق المساواة بين الناس، وعدم التمييز بينهم لأى سبب من الأسباب.

فالمجتمع المؤمن مجتمع عادل يطبق مبدأ الأخوة فكراً وسلوكاً مما يترتب عليه انتظام العلاقة بين أفراده، ولا يمكن أن يتم هذا إلا بالبعد عن الظلم، لهذا نجد الإسلام يسد الباب أمام أى انحراف ففى الحديث الشريف عن الرسول (ﷺ) أنه قال : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ...)[1].

وقصارى القول إن مثل هذه المعانى لا تتم إلا من خلال العدالة وتطبيقها وأعنى بالعدالة هنا. المترلة من عند الله تعالى من خلال شرائعه، فهو يعلم ما يصلح الإنسان، وما لا يصلحه حيث إن العدل كمبدأ لا يمكن أن يتحقق من خلال القوانين البشرية التى قام بوضعها بعض المصلحين أو المفكرين، فلم نسمع عن مجتمع تحققت فيها العدالة من خلالها، بخلاف القوانين الإلهية، فهى كفيلة بتحقيق كل خير، وإرساء كل حق، وتنظيم العلاقة بين الأفراد والجماعات وبالجملة فعن طريق العدل " تشيع المحبة بين الناس وتأتلف نياهم، وتعمر مدنهم، وتتم معاملتهم، وتقوم سننهم "[2].

وكل هذا دليل على انتظام العلاقة بينهم.

---

(١)الحديث أخرجه : البخارى ك المظالم والغضب باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه م٢ جـ٣ صـ٢٦٧ ح (٦٦١).

مسلم ك البر والصلة باب تحريم الظلم م٨ جـ١٦ صـ١٣٧ ح (٢٥٨٠) .

(٢)الهوامل والشوامل. لأبى حيان التوحيدى ومسكويه. صـ٨٤ .

هـ-تحقيق المساواة التامة بالمعنى الصحيح:

قال تعالى : ﴿ يأيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ..... ﴾(١).

قال تعالى ﴿ فلينظر الإنسان مما خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ﴾(٢).

فالمتأمل فى هذه النصوص يجد أنها تشير إلى أمر مهم وهو وحدة الأصل، هذه النظرية السهلة الميسرة فى حقيقة النشأة الأولى أثرت الحياة بالإخاء والتواضع والعمل الصالح والعدل والصدق ونبذ الظلم والنفاق ، ولم تترك باباً لمن ارتكبوا كثيراً من الحماقات وظلموا الناس بزعم أنهم أبناء الله أو من نسل خاص أو شعب مختار إلا وصدته، وتركت باب السبق فى الخيرات ميداناً فسيحاً يتنافس فيه المتنافسون، وأقرت بذلك مبدأ التفاوت فى المواهب والقدرات، مما ترتب عليه التمايز فى العلم والأرزاق والمناصب والدرجات وهذا المبدأ من أصلح النظم التى تستقيم عليها حياة الفرد والجماعة. فالحياة تفتقر إلى المزايا قال تعالى ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض..... ﴾ (٣).

وقال تعالى ﴿ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق... ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون... ﴾ (٥).

---

(١)سورة الحجرات الآية ١٩.

(٢)سورة الطارق الآيات ٥-٧.

(٣)سورة البقرة الآية ٢٥٣ .

(٤)سورة النحل الآية ٧١.

(٥)سورة الزمر الآية ٩.

إن المجتمعات المؤمنة بالغيب.تتحقق فيها المساواة التامة بالمعنى الصحيح، دون أن تمنع من التفاوت فى المواهب والقدرات والدرجات لتستقيم الحياة فهذه المجتمعات هى التى " تسمح للكفاءات والمزايا الخلقية بالمجال الذى يناسبها فى الحياة العامة، ولكنه لا يسمح لها بأن تحرم أحداً حقه ، أو تقف بينه وبين مجاله الذى استعد له بما هو أهله ولو لم يولد فيه، ولم يكن منه بالنسب والوراثة " [1].

فالمجتمع لا يمنع من التفاوت بين الناس، فذلك ضرورة اقتصها طبيعة الحياة ، لهذا لا عجب أن نرى الله تعالى يقول ﴿ .... ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً ﴾[2].

من خلال ما سبق يتضح لنا أن العدل يترتب عليه تحقيق مبدأ المساواة التامة بالمعنى الصحيح، هذه المساواة التى عن طريقها تتحقق جملة من الأمور من أهمها:

١-الاستقرار والطمأنينة فى المجتمع وذلك لما يشعر به كل فرد أنه ليس أقل من غيره.

٢-القضاء على الفتنة الطائفية نظراً لشعور الذميين بأن لهم حق المواطنة على قدم المساواة مع المسلمين.

٣-طمأنينة كل فرد إلى عدالة الحكم؛ لأن من طبيعة الحاكم العادل أن لا يفرق بين الناس تبعا لأعراقهم أو نسبهم أو وضعهم[3].

(١)حقائق الإسلام .للعقاد .صـــ١٥٠ .

(٢)سورة الإسراء الآية ٥٥.

(٣)انظر: موسوعة نضرة النعيم فى مكارم أخلاق الرسول الكريم جـ٧ صـ٢٨١٨ .

٤-النظر إلى الفوارق والتفاوت بين الناس فى الدرجات والطبقات نظرة مستقيمة يفهم منها ضرورة هذا التفاوت لتستقيم حياة الناس حيث إن " العالم بخير ما دامت فيه أنواع الكفايات وفوارق المزايا والصفات وما دامت هذه الأنواع والفوارق فيه يتمم بعضها بعضاً ويجرى بعضها على معونة بعض، والعالم على شر ما يكون إذا أزال فيه كل خلاف بزوال الأداة المختلف فيها"[١].

وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴾ [٢].

وقصارى القول : أن العدل كالقوة الجاذبة التى عن طريقها تعم المودة، وتنتشر الرحمة، فتتآخى به النفوس، وتشتد به العلائق، وتنصلح به أحوال المجتمعات، ويسير على هداه الجماعات.

فالعدل فضيلة تقوم المعوج وترد الباغى، وترهب الجائر، وتسمح للحياة أن تستمر، أما الظلم فهو من الظلام،وكلاهما نذير سوء، وبشرى طغيان فهو رذيلة بغيضة بها يفقد المجتمع وحدته، وينبىء عن خطر عظيم، فتكثر المحرمات، وتظهر السلوكيات الشاذة والأخلاقيات الفاسدة فضلاً عن هذا يشعر صاحبه بوحشة ويعيش شارد الخاطر قلق النفس، فهو آفة من آفات المجتمع. تقف عقبة فى تقدمه وازدهاره ويؤدى الأمر فى النهاية إلى فتنة فى الأغلب تحيط بصاحبها.

---

(١)حقائق الإسلام .عباس العقاد صـ١٥٧ .

(٢)سورة هود الآية (١١٨)

المطلب الثالث

العفة وأثرها على الفرد والمجتمع

العفة كفضيلة خلقية لها أثرها الطيب على الفرد والمجتمع فهى متسعة المعانى ، متعددة الجوانب وليست كما يظن بعض الناس أن العفة تعنى هجر الفاحشة والواقع أن هذا فهم قاصر ويؤكد ذلك تعريف العلماء لها.

فقد عرفها العلماء بأنها: " صرف الشهوات على وفق الرأى الصحيح فيكون صاحبها خيراً غير خاضع لها، وهى ناشئة عن اعتدال القوى الشهوانية بين الإنسان وغيره من أنواع الحيوان"[١].

ومعنى هذا أن: العفة فضيلة يتخلق بها الفرد ويسير بها إلى الطريق السوى غير منقاد لطريق الأهواء والشهوات.

الجوانب التى تشملها العفة:

١ -الأنفة فى طلب الطعام والمال مع شدة الفقر:

قال تعالى: ﴿ للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً ..... ﴾ [٢].

فهذه الآية توضح جانباً من جوانب العفة أعنى أنها تشير إلى سمة أهل التعفف الذين اقتدوا برسول الله (ﷺ) فى الأنفة فى طلب الطعام من أحد مع أنهم أحوج ما يكونون إليه، حتى أنهم بتعففهم هذا كان الجاهل بحالهم يظنهم

---

(١) كتاب الفلسفة العربية والأخلاقية. هو ملخص المحاضرات التى ألقاها سلطان بك محمد بالجامعة المصرية جـ ٢ صـ ٨ . مطابع المعارف بشارع مصر بالفجالة.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٧٣.

أغنياء فقد كانوا " مستغنين من أجل تعففهم عن المسألة تعرفهم من صفرة الوجه ورثاثة الحال "[١].

٢-نزاهة النفس وأمانة اليد:

قال تعالى : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن أنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف.... ﴾[٢].

والمعنى : أى اختبروا عقولهم وذوقوا أحوالهم ومعرفتهم بالتصرف قبل البلوغ، حتى إذا تبينتم منهم رشداً دفعتم إليهم من غير تأخير عن حد البلوغ، ولا تأكلوا أموالهم مسرفين ومبادرين كبرهم، والأوصياء نوعان:

نوع غنى، ونوع فقير، و على كل منها أن يستعف فالغنى لا يطمع ويقتنع بما رزقه الله من الغنى إشفاقاً على اليتيم وإبقاء على ماله، والفقير يأكل قوتاً مقدراً بالعدل والأمانة [٣].

فالعفة هنا تعنى أمانة اليد ونزاهة النفس لأن العفيف يمنع نفسه عما لا يحل له كما أنه لا يمد يده على ما ليس من حقه، أو من حقه لكنه يستعفف.

٣ـ حفظ الفروج عن الحرام :

قال تعالى ﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله... ﴾[٤]

---

(١)تفسير الكشاف جـ١ صـ٣١٨.

(٢)سورة النساء الآية ٦.

(٣)أنظر: تفسير الكشاف جـ صـ٢٧٢-٢٧٤ .

(٤)سورة النور الآية ٣٣.

فهذه الآية اشتملت على أمر بالاجتهاد فى طلب العفة، وتحرى مواضعها والحرص عليها للعاجزين عن الزواج بسبب الفقر وقلة الحاجة .

والمعنى: ليجتهد كل إنسان فى العفة، ومنع النفس عن الحرام، كأن المستعف طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه [١].

هذه بعض المعانى التى تؤكد على أن العفة متسعة المعانى، مما يؤكد أهميتها كفضيلة خلقية تعود بالخير على الفرد والمجتمع.

فالإنسان لا يكون عفيفاً " تام العفة حتى يكون عفيف اليد واللسان والسمع والبصر فمن عدمها فى اللسان السخرية والتجسس والغيبة والهمز والنميمة والتنابز بالألقاب، ومن عدمها فى البصر مد العين إلى المحارم وزينة الحياة الدنيا المولدة للشهوات الرديئة، ومن عدمها فى السمع الإصغاء إلى الممنوعات القبيحة وعماد عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها صاحبها فى شىء مما يختص بكل واحد منها إلا فيما يسوغه العقل والشرع دون الشهوة والهوى "[٢].

أثر العفة على الفرد والمجتمع :

أ-النجاة من الفواحش

من أولى الآثار التى تعود على الأفراد والمجتمعات من وراء تخلقهم بهذه الفضيلة هو حفظه من الوقوع فى الفواحش، لا سيما وأن للشهوة تأثيرها على النفوس فهى كما يقول بعض العلماء " خادعة العقول، وغادرة الألباب، ومحسنة القبائح، ومسولة الفضائح وليس عطب إلا وهى له سبب

---

(١) أنظر :تفسير الكشاف جـ٣ صـ٢٣٧-٢٣٨، وتفسير الرازى م١٢ جـ٢٣ صـ٢١٦ .

(٢) موسوعة نضرة النعيم جـ٧ صـ٢٨٧٤.

وعليه ألب "[1].

فالعفة نعمة عظيمة فمن تخلق بها هانت علية لذائذ الدنيا كلها، فالعفيف لا يستعف عن فعل الفاحشة فحسب بل إنه يتعفف عن مقدماتها وأسبابها.

وذلك امتثالاً لقولة تعالى ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ [2].

فالنظرات والملامسة والمحادثة كلها أمور تؤدى إلى الوقوع فى الفاحشة خصوصاً فى المجتمعات المادية التى تنكرت للدين وأنكرت العالم العينى جملة وتفصيلاً.

فهذه المجتمعات امتلأت بالفواحش والمنكرات ، فالإيمان بوجود عالم أخر غير هذا العالم يجازى فيه المرء على ما قدم يدفعه إلى ضبط سلوكه والحكم على أفعاله بل الإقدام عليها هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يكون ذلك سبباً لبقاء المجتمع نتيجة لاستقامة أفراده " فهى مقدمة ضرورية لبقاء المجتمع فى صفاء علاقاته ، وفى بعدهم عن الحقد ، وعن تدبير السوء بعضهم لبعض "[3].

فالعفة على ما سبق بيانه تقى الإنسان من ارتكاب أى نوع من الفواحش سواء كان عن طريق اليد أو اللسان أو الفرج أو غيرهم ، حيث إنها تهدف إلى إخضاع الشهوات والعمل على ترويضها وتنظيمها.

---

(١) أدب الدنيا والدين الماورردى صـ٣١٠.

(٢) سورة الإسراء الآية ٣٢.

(٣) القرآن والمجتمع د. محمد البهى صـ١٢٠ نشر مكتبة- وهبة ط٢ ١٤٠٦هـ/١٩٨٦ .

ب- انتشار الخير:

إذا كانت العفة تعمل على هجره المرء للمعصية فإنها أيضاً تساعد على زيادة الخير وانتشاره لأنها فضيلة بها تهون على الإنسان كل لذائذ الحياة ، ومغريات الدنيا. فيصبح مصدر خير لنفسه وأهله ومجتمعه ، فهو يعرف ماله من حقوق ، وما عليه من واجبات، فيرعى حقوق الله كما يرعى حقوق عباده المادية والأدبية؛ فضلاً عن هذا تحمل صاحبها على احترام ما ألفوه وما درجوا عليه من عادات وتقاليد، فالعفة تهدئ من روع الشهوة وتلطفها، وتلقي برعاية التقوى على العقل فينعم العفيف بحياة هنيئة طاهرة وينعم من حوله بالخير[1].

على حين أنه إذا غابت العفة عن مجتمع ما فإن أفراده يتسابقون فيما بينهم لتحقيق رغباتهم وشهواتهم، فلا يمنعهم مانع، ولا يردهم حاجز ، ومن هنا ينشأ صراع مرير وشديد بين أفراده .

---

(١)انظر : العفة ومنهج الاستعفاف -يحيى بن سليمان العقيلي صـ٩٨ ط دار الدعوة الكويت. دار الوفاء مصر ط٢ ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

فهرس الموضوعات